



إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ



تفسير

سُورَتِي الطَّلَاقِ وَالْبَحْرِ الْمُرِّ

الميسر



- عنوان الكتاب: بذور الرشد، تفسير سورتي: الطلاق والتحريم
- اسم المؤلف: د. محمد باباعمي
- الطبعة الأولى: 1441 هـ - 2019 م
- مقاس الكتاب: 190 × 125
- عدد الصفحات: 136
- ردمك: 3-10-735-9931-978-ISBN
- الإيداع القانوني: السادس الثاني، 2019.

محموظة
جميع الحقوق

Copyright © 2019 Kitabook



Kitabook.net





تفسير



الْمَيْسَّر

محمد باباعمي



بنيّة العمل

لا يعنيني في شيء أن أفسّر القرآن الكريم، فقد فسّره علماء كرام؛
ولكنني أحيا به ومعهم، ثم أتخذه منطلقا لفكري، وصبغة لفعلي...
في رحلة العمر، وقد جاوزت الخمسين حِجّة؛
وهي مرحلة لا أرجو معها ولا بعدها إلا معية الله **جَلَّ جَلَالُهُ**،
وصحبة كلامه، وكنف رحمته ورضاه؛
أسأله سبحانه صلاح أمر أمّتي، وأن يفرج عنها،
ويظهر دينه على سائر الأديان،
وأدعوه أن يصحح بكلامه الحكيم انحراف البشرية
الفكري والثقافي والحضاري،
وأن يسخرنا في إطار «نموذج الرشد»،
وبالاستعانة بـ«بذور الرشد»، لهذا السبيل،
أشهدُ الله أن ليس لي في الدنيا أمنية، إلا أن يجتمع عدد من العلماء،
فيجتهدون في علوم القرآن والتفسير، وعلوم المعنى والتنزيل؛ بعقل
جمعيّ، داخل مراكز بحثية دائمة؛ تنفق فيها أموال أثرياء الأمة،
وتسخر لها سلطة تميمها، وتجنّد لها سواعد وعقول
خيرة علماء هذه الأمة...
لنحقق بذلك نقلة حضارية توحيدية، نبتغي ذخرها عند الله تعالى
وما بين يدي القارئ الحبيب هو صورة لهذا المعنى،
وهو ظل لتلك النية، في انتظار تحقيق المطلوب، وبلوغ المرغوب
اللَّهُمَّ فاشهد، وبلغ المقصود



فريق العمل

- | | |
|----------------------|---------------------------|
| أ. جابر ناصر بوحجّام | • الأمانة والتنسيق: |
| أ. جابر باباعمي | • الإشراف الفني: |
| أ. ياسين بوشارب | • التصميم والتنفيذ الفني: |
| أ. محمد الحاج سعيد | • متابعة النشر والطباعة: |
| د. عبد الرحمن معاشي | • المراجعون: |
| أ. علي حمودة | |
| أ. جابر ناصر بوحجّام | |
| أ. جابر باباعمي | |



مقاصد تفسير الرشدا

- تحبيب كلام الله تعالى للناس بعامّة، وللناشئة والشباب بخاصّة.
- عرضُ التفسير في صورةٍ غير منفرّدة لمن لم يألف مطالعة المجلدات.
- الوصول بكلام الله تعالى في حياتنا اليومية إلى حال التمثل والتناغم، بعيدا عن حال التكلف والانفصام.
- الخروج من دائرة الاختلاف في الأصول وتخطئة الآخر؛ إلى سعة المعاني المتفق عليها، والتي تمثل أصل الدين ولبه؛ مع اعتبار الأوجه التي تؤشر إلى رحابة الدين، والتي تمثل الفروع، الجائز الاختلاف فيها.
- اعتماد مصادر التفسير كلّها: من سنة نبوية، وآثارٍ عن الصحابة، وأقوال للتابعين، وتفسير من بعدهم عبر القرون؛ بعيدا عن جفاء القطيعة.
- الإسهام في تحذير الناس من الجرأة على كلام الله، والتقول على الله تعالى بما لم يقل.
- اعتبار اللغة مصدرا أساسا لفهم الآية القرآنية؛ لكنه غير كافٍ لوحده.

- توظيف الجملة وحدة معيارية للفهم بديلا عن النص المسترسل الطويل؛ وذلك استفادة من منهج القرآن الكريم في اتخاذه الآية وحدة معيارية لبنية المعنى.
- استشارة العمل بعد فهم الآية القرآنية، ذلك أن الغرض من كلام الله تعالى هو «الامتثال والتمثل» لا مجرد الحفظ والأداء والفهم.
- الدعوة إلى أعمال العقل الجماعي في إنجاز مشاريع لا حصر لها، من مداخل معرفية متجاوزة للتخصص، في فهم كلام الله تعالى.
- الدفاع عن الفهم المطيافي، الذي أسسنا له منذ عقدين من الزمان «المبني على اعتماد الموشور المعرفي، المكوّن من عقول متباينة، وتخصّصات مختلفة، وحالات ونماذج معرفية متعددة... للوصول إلى فهم ديناميكي حركي للآية القرآنية».
- تحريك مراحل تحويل المعلومة إلى سلوك، من خلال بذور الرشد: السؤال، الافتراض، الرؤية الكونية، القاعدة الكلية، الصورة الإدراكية، مخطط الفعل، الفعل الحضاري.



بين برى سورة الطلاق

«التقوى» ملاك الأمر كله:

هى سورة كريمة تلج بيوت النبي ﷺ، وتقتحم مساكن المسلمين من بعده إلى يوم الدين؛ بغير رسم «خريطة الطريق»، وبيان «المنهج الأقوم» للعلاقة بين الزوجين، في حال الوفاق وفي حال الفراق؛ ذلك أن لغة العواطف والشحناء - في مثل هذه المواقف - تتغلب على لغة العقل والحكمة؛ فالزواج «حب» يعقبه «ميثاق غليظ»؛ والطلاق «بغض» يضبطه «شرع حكيم»؛ وليس شأن الحب والبغض بهين على الناس، ولا في المقدور التحكم فيه، إذا لم تسند الزوجين شريعة متعالية متجاوزة، قادرة على الإنصاف والعدل في أيسر الظروف، وعند أشدها عسرا. ولا يخطئ القارئ المتفكر في السورة الكريمة - سورة الطلاق - تكرر الأمر بالتقوى؛ ذلك أن القانون الأعزل لا يقدر على ضبط المسألة، إذا خلا القلب من «تقوى الله تعالى»؛ والمجال مجال إسرارٍ وسترٍ لا مجال إعلانٍ وفضحٍ؛ فمن أول آية نقرأ أمر الله تعالى لنبيه عليه السلام وللمؤمنين على إثره: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾؛ ثم تعلن الآيات أن الموعظة لا تنفع إلا المتقين المؤمنين الموفين: ﴿ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

ثم تعلق الآيات الكريمات المخرَج من المضايق، والسلامة حين الطلاق، على شرط واحد هو: «تقوى الله تعالى»؛ فمن لم يتق الله تعالى لم يهده الله إلى الصواب، ولم يفتح عليه بئر الأمان: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾؛ ثم زيد إلى التقوى معنى التوكل، وهو معنى متفرع عن الأصل: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾؛ ثم يعلنها الله تعالى واضحة أن التيسير بيد الله تعالى، وهو جائزة لمن آمن بالله وحده، واتقاه ولم يعصه سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾.

ولا تخلُّ حالات الزواج والطلاق من تجاوزات تصبغ الطبيعة البشرية، ولذا كانت التوبة ترياقا، ومغفرة الله تعالى ملاذاً: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾.

وكما أن تقوى الله تعالى هي صمام الأمان في الأحوال الشخصية، وعند العلاقات الزوجية، بل وعند كل علاقة مشروعة من الله تعالى؛ فإنها كذلك في الحالات الجماعية، وحين يلحق الوصف بالقرى، وبالأمم، وبالناس مجتمعين: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾.

ويوم القيامة لا نجاة ولا سلامة إلا لمن آمن بالله واتقاه، أما من كفر وضلَّ عن سواء السبيل فمآله جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا: ﴿وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا نُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

وسببُ التقوى، بل وسرُّها، أن نقدر الله تعالى حقَّ قدره، وأن نعرف قدرنا حتى لا نظلمها بأن نُعلي من شأنها إلى مقام الألوهية، أو نُذني من شأنها إلى حضيض الحيوانية؛ فمن عرف نفسه عرف ربَّه، ومن عرف ربَّه عرف نفسه؛ ومن عرف ربَّه ونفسه كان حقيقاً بالسعادة في الدارين، وبالطمأنينة في كل آن وحين؛ وليس أدلَّ على هذا المعنى من ختم السورة بقول تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

❁ سورة القواعد الكلية:

ينتقل العقل وهو يمارس التفكير والتحليل من الجزء إلى الكل، ومن الكل إلى الجزء؛ ولا يمكنه أن يستغني عن المراوحة بين الاتجاهين؛ فليس ثمة «عقل استقرائي محض»، ولا «عقل استنباطي محض»؛ ويمكننا أن نقرّر معرفياً ومنهجياً أن ادعاء الشكل الخطّي البسيط للعقل هو مجرد وهم، حتى ولو تلبّس بلبوس الفلسفة أو نُسب إلى عالم أو مدرسة بعينها؛ ذلك أن الظاهرة البشرية «ظاهرة مركّبة»، وأن الاختزال من خصائص «العلوم الكميّة»، ومن مواصفات «المقدّمات المدرسيّة»؛ قد يصدق على الآلة، وعلى الجهاز، وعلى المثال، وعلى الدرس؛ ولكنه يقيناً لا يصدق على الحياة في تعقدها.

فهل ثمة إنسانٌ، وهو أمام ظاهرةٍ مهما بدت بسيطةً، يمكنه أن يدَّعي أنه «الآن يمارس الاستقراء»، أو في هذا الموقف يمارس «الاستنباط»، ثم يلغي التفاعل بينهما شكلاً ومضموناً؟
حقاً، إنَّ العلوم أحياناً تقتل الحقيقة لتتحكَّم فيها، ولكنها لن تقدر على التعرُّف على الحقيقة كما هي إلا إذا تقبَّلتها كما هي: مركَّبةً، مكثَّفةً، معقَّدةً أحياناً، بل ومتجاوزة للفهم أحيان كثيرة؛ وهي ذات وجوه وزوايا لا حصر لها، ولكل وجه وجوهٌ أخرى لا عدَّ لها ولا حدَّ...

لهذا السبب، ومصداقاً لهذه المقدِّمة، كان صياغة «القواعد الكلية» فناً مُساعداً على الحسنِ في التفكير، وعلى الإحسانِ في التدبير؛ إذ لا يمكن أن يحفظ إنسان جميع التفاصيل، وأن يحشر جميع الحالات الممكنة التي قد تعترضه في حياته؛ وتأتي «القاعدة الكلية» لتهدى قلبه وعقله إلى الحكم الصواب، حتى ولو لم يعرف جزئيات المسألة، ولم يهتد إلى تفاصيلها.

وبين ثنايا سورة الطلاق، وهي تفصل القول في مسألة تبدو لأوَّل وهلة جزئيةً، بسيطةً، واضحةً؛ غير أنها عند إمعان النظر، نتيقتن أنها مسألةٌ، كغيرها من مسائل الأحوال الشخصية، أو المسائل العامة؛ في حاجة إلى «قواعد كلية» تكون بمثابة «لوائح قانونِ المرور» على جنبات الطريق؛ تهدى السائق إلى التصرف الأمثل حتى ولو لم يمرَّ من ذلك الطريق يوماً.

وإذا أحصينا «القواعد الكلية» في سورة الطلاق، وجدناها تعدُّ بالعشرات، إذ منهجُ استخراجها، وطريقةُ صياغتها، وحدودُ اعتبارها، هو الذي يعيّن عددها ونوعها؛ والأمثلة لا تكاد تُحصى، وهذه قائمة أولية تحوي بعضًا منها، وقد يتداخل بعضها في بعض، أو يُستخرج من إحداها أكثر من قاعدة؛ وتبقى المسألة خارج إمكان الضبط الكميّ الفجّ:

- ﴿لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾⁽¹⁾
 و﴿أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.
 ﴿أَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾.
 ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالْعِزِّ أَمْرٌ﴾.
 ﴿يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.
 ﴿وَاتَّبِعُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾.
 ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾.
 ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾.
 ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾.
 ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾.
 ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآءَاتَهَا﴾.
 ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾.

(1) يلاحظ أنها قاعدة وجوديةٌ بغير «اعلموا»، ومعرفةٌ إذا أُضيف إليها فعل الأمر «اعلموا»، وكذلك الحال مع القاعدة التي تليها..

- ﴿مَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ .
 ﴿مَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ .
 ﴿مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ .
 ﴿مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ .
 ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ .
 ﴿مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ .
 ﴿مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ .

❖. ظلم ما بعده ظلم (الطلاق بين الشرع والشارع):

علمنا ربنا الحكيم في مُحكم تنزيله العزيز أن ندعوه بقولنا:
 ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الممتحنة:5]؛ ذلك أن
 المسلم إذا أساء التصرف، وإذا لم يلتزم بأحكام دينه، كان فتنة
 للناس كافة، وكان فتنة للذين كفروا بخاصة؛ وكم من مُسلم شوّه
 صورة الإسلام، فكان سبباً لكره الناس لهذا الدين الحنيف،
 وليس كلُّ الناس يفرّق بين «ما ينبغي أن يكون، وما هو كائن» .
 ففي أمرِ الطلاق مثلاً، الهوةُ شاسعةٌ بين ما نزل من أحكام
 في شرعنا الحنيف، وبين ممارسات الناس مشرقاً ومغرباً؛
 يقول الشيخ محمد الغزالي: «الطلاق كما مارسه المسلمون
 اقترن بمأسٍ كثيرة؛ فمن الناحية الفقهية وقع الاعتراف بالطلاق

البِدْعِيّ⁽¹⁾، وانتشر الحلف بالطلاق؛ كما انتشر تعليقه على التوافه المحقرة» ثم يقول: «ويكاد يستحيل أن تسمع امرأة الطلاق وتبقى في البيت، كما ينذر وقوع الطلاق داخل النطاق الذي رسمته السنّة النبويّة من طهر، واعتزال، وإشهاد».

ويخلص الشيخ الإمام إلى القول: «وقد أضّر ذلك إضراراً بليغا بسُمة الإسلام وانتشار رسالته، واستغله أعداؤه استغلالاً واسعاً» (نحو تفسير موضوعي).

أمّا الشيخ حمو فخار فيقول واصفاً التجاوزات التي تحدث حين الطلاق، بلا رقيبٍ من شرع ولا عقل: «فإذا البيوت - بعد طول أنسها - موحشة شاعرة، وبين عشية وضحاها، في فورة غضبٍ عابرة، أراملٌ بائرة؛ وإذا الذرية ربائب ذليلة، في كفالة جائرة، أو مشردة تتسوّل ضائعة، متسكّعة حائرة؛ ولا تسأل عن آباء المطلقات وأمّهاتهنّ... لقد أصبحوا ولا من يرثي لحالهم، في أزماتٍ مؤرّقات، وهمومٍ مُقيّماتٍ مقعداتٍ.

ولا تسأل عن القطيعة بين الأصهار، التي يشتعل فور الطلاق فتيلها، ويمتدّ إلى الأطراف لهيبتها... وتعظم البليّة، ويتفاقم

(1) الطلاق البدعيّ هو ما كان من طلاق مخالف لأمر الله تعالى، ولحكم الشرع الحنيف؛ ومثله أن يطلق الرجل امرأته في حيض، أو في نفاس، أو في طهر جامعها فيه؛ واختلف في وقوعه: هل يقع وأثم الفاعل، أو لا يقع؟

الخطب، إذا كانت المصاهرة في القرابة، أو عندما يتدخل الفضوليون المفتنون بالنفخ في الجمر المتقد ليزداد اتقاداً» ثم يُجمل الشيخ الأديب حكم إخراج المطلقات من البيوت، وهي بدعة متفشية في المجتمع، بقوله: «ليس من المروءة وحقّ الصحبة أن ترمي زوجتك في لحظةٍ بسهمين اثنين، وتنزل بها في رمضةٍ عينٍ داهيتين: داهية الطلاق، وداهية الإخراج». (من خطب الجمعة، الجزء الأول).

ويبقى التحدي الكبير اليوم في السؤال عن كيفية الجمع بين حكم الشرع الحنيف، وأحكام القوانين المدنية القاصرة، التي كثيراً ما تخالف الشرع؛ أو على أقل تقدير لا تجعله مرجعاً وحيداً ولا أساساً فريداً؛ بل إن بعض البلاد الإسلامية عمدت إلى الأحوال الشخصية - ومنها أحكام الزواج والطلاق - فرمتها بداء المدنية الغربية، وقطعت أوصالها بالإعراض عن كتاب الله تعالى، وعن سنة نبيه الكريم، وعن شرعه الحنيف؛ تحت مسميات كثيرة، خوفاً من «مؤسسات حقوقية عالمية»، وتملقاً ل«أدعياء علمانيين يعيشون في الأرض فساداً»، ومجاراتاً ل«إعلام جائر، يدافع عن كل باطل، ويدير ظهره لكل حق».

وتبقى صفات الله تعالى فوق كل ظلم وجور، متجاوزة لكل حيف وفجور؛ ومما ورد في سورة الطلاق من صفات هي البلسم لداء الأفراد والأمم؛ من آمن بها، وعمل بمقتضاها، نجا وسعد؛

ومن أعرض عنها، وعمل خلاف مؤدّأها، هلك وشقي؛ ومن هذه الصفات الواردة في السورة الكريمة: ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾، ﴿الْعَلِيمُ الْحَبِيرُ﴾؛ ودور المسلم أن يدعو على ضوء هذه الصفات الجليلات بقوله: ﴿رَبَّنَا أَنْتِمْ لَنَا نُورُنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.



بين يدي سورة التصريم

❏ المرأة في تشريع الله تعالى: كرامةٌ تسترُدُّ

المرأة في أحكام التشريع عبر العصور، ولدى الحضارات جميعها، ليست سوى «متاع» أو «بضاعة» لا إرادة لها ولا كرامة؛ فهي ظلٌّ للرجل وتابعٌ له؛ عليها تتسلط القوانين بلا رحمة ولا شفقة؛ بل إنَّ من الأمم من يُعدها كياناً أقلَّ من الإنسان، فهي كالحيوان أو أعلى منه بدرجة؛ لكنَّها في جميع الأحوال ليست «إنساناً كاملاً الحقوق والواجبات».

ففي التراث المسيحي مثلاً، تذكر الوثائق التاريخية أنه في القرن الخامس الميلادي عقد مؤتمر (ماكون) للبحث حول سؤال: هل المرأة مجرد جسم لا روح فيه؟ أم هي جسدٌ وروح؟... وانتهى إلى أنَّ جميع النساء المسيحيات سوف يدخلن جهنم، ومما ورد في بيان المؤتمر: «المرأة خالية من الروح الناجية من عذاب جهنم، ما عدا أمُّ المسيح...»⁽¹⁾.

(1) كتبتُ مقالاً في المجلة المدرسية، ثانوية مفدي زكرياء، في عام 1985م؛ باللغة الفرنسية، بعنوان: «امرأة تعتنق الإسلام»؛ وحين نُشر، تدخل أستاذنا لنا وزوجته، وكانا من الآباء البيض؛ فرداً عليّ بقصيدة شعرية - بالفرنسية - وقد اغتاظا كثيراً من المقال؛ وللأسف، لم أجد النصَّ في =

ولقد جاء الإسلام من الله تعالى، ونزل القرآن من الرحمن سبحانه، فألفى مجتمعاً عربياً له من صفات الصحراء الكثير، منها ما هو إيجابي كالصبر والتحمُّد، ومنها ما هو سلبي كالقسوة والجفاء؛ وما دام طبع المرأة ميّالاً إلى اللين والرفقة، فإنها قد تهشمت وسُحقت بين فكّي الرّحى؛ فلم يراعَ لها حقٌّ، ولم تُحفظ لها ذمّة، ولم يُنظر إليها بعين الاحترام والعناية؛ حتى بلغ بالناس من الظلم أنّ الواحد منهم إذا بُشر بالأنثى ﴿ظَلَّ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (58) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ﴾؛ فهو ينظر إلى الأنثى على أنها عارٌّ ركبته، وشنارٌ لحقه، ولطخةٌ لا بدَّ من إزالتها.

ثم إنَّ أحكام الزواج والطلاق، كانت أبداً لصالح الرجل المطلق، ظالمة للمرأة المطلقة؛ فاعتنى كتابُ الله تعالى في سور عديدة، منها سورة البقرة، والأحزاب، والطلاق... بأمرِ الطلاق، ونظّم تفاصيله، حتى لا ينال النقطة الأضعف (أي المرأة) ظلمٌ ولا حيفٌ.

وسورة التحريم تناولت المرأة والبيت المسلم من زاوية أخرى، وهي زاوية العلاقة بين الزوج والزوجة في أدق التفاصيل، وأيسر الأحكام: في ابتغاء مرضاة الزوجات وما

= أرشيفي الخاص؛ وتبقى الحادثة عنوانا لصراع حضاريٍّ مريع، مسرحه بلاد المسلمين؛ سواء وعوا ذلك أم لم يعوا.

يتبع ذلك من تحليل لما حرّم الله تعالى، أو تحريمٍ لما أحلّ الله **جَلَّ جَلَالُهُ**؛ وفي الإسرار إلى المرأة وأحكام إفشاء السرِّ، وما يستتبع ذلك من مظالم ومن أذى...

وفي جميع ما جاء في سورة التحريم نقرأ الكرامة كاملة القسمات، موزّعة توزيعاً عادلاً؛ للرجل وللمرأة وللبيت المسلم على السواء؛ فلا يظلم الواحدٌ منهم الآخر ولا يُظلم؛ وإنما يتحرّى العدل فيما يأتي وما يذر... ويحتكم في كلّ أمره إلى الله تعالى «العدل الرحيم»، لا إلى أحكام البشر الميالين بالضرورة إلى الجور والظلم...

وإذ تدخّل الوحي لتسوية قضية داخل أسرة النبي ﷺ، وهي أقدس أسرة وأطهرها إطلاقاً؛ فإنّ سائر بيوت المسلمين - بالتبع - وجب أن يُعتنى بها وتصان من كلّ ما يشوش أداؤها لرسالتها الحضارية والاجتماعية؛ ولا يعني ذلك أن يُتظر من الأزواج صفات ملائكية، خاليةً من كلّ ما يشوبها ويشينها؛ لكن حين يصدر خطأ ما من زوجٍ تجاه زوجته، أو من زوجة تجاه زوجها؛ وجب المسارعة إلى التوبة والإنابة: **﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾**؛ أمّا من يركب أمّ رأسه، ويستنكف عن الاعتذار والاستغفار فإنه يُحشر مع الشياطين، ويكون قد استعدى الله ورسوله، وجبريل وصالح المؤمنين، والملائكة جميعاً؛ فأنى له أن ينجو من هذه الحرب أو يخرج منها سالمًا.

والمرأة المثالية هي التي تجتمع فيها الصفات الواردة في سورة التحريم: ﴿مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾؛ أين منها صفات المرأة المثالية في عهد التخثث والميوعة، بحيث لا ينظر إلا إلى مظهرها، وغوايتها، بل ويُستحسن فيها فسادها، ويستحثُّ فيها عرضها لمفاتها؛ فتعمد وسائل الإعلام إلى جعلها مثالا للبنات والشابات؛ ويُنفق في ذلك المأل الكثير، وتهدر أعراض، وتذوب قيم، ويبقى الجميع مشدوها حيال الواقع، لا يملك أمرا ولا نهيا.

ومن أسف أن من يُنافح عن حياض الإسلام والقيم اليوم، بات ضعيفا، لا يملك وسائل الدفاع عن الحق الناصع الذي بين يديه، وكثيرا ما كان غير جادا في حربه الحضارية، فترك الساحة فارغة، والسوق خاوية، لمن يرتع في الفساد، وينشر أنواع الضلالة، ويسوق للسراب.

ولذا صاغت لنا سورة التحريم «صورة المرأة المثالية»، عبر الأزمان؛ كما حذرت من صورة «المرأة المثل في الكفر» ومجانبة الحق؛ فكانت امرأة نوح وامرأة لوط عنوانا لمن نشأ في بيت النبوة ثم اختار الفسوق طواعية؛ وكانت امرأة فرعون على نقيضهما، حيث اختارت الحق وهي ترعى داخل أضل بيت، وتحت كنف أعتى فاجر وأخبث كافر؛ وكانت مريم ابنت عمران نموذجا يحتذى في الطهر والعفاف؛ ذلك أنها ﴿صَدَّقَتْ

بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكِتَابِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَائِتِينَ ﴿١٠﴾.

والسورة دالة بوضوح أنّ الإنسان، رجلاً كان أو امرأة، مسؤول عن خياراته، لا يحاسب بجريرة أحد؛ ولا يملك أحد أن يفرض الإيمان أو الكفر على أحد؛ إلا إذا وجد فيه استعداداً لذلك؛ ولذا كانت «القاعدة الكلية»: ﴿لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾، ومدلولها: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾...

ثم لهذا كله يُقال يوم القيامة لمن كفر: لا عذر لكم، ويعلن أمام الأشهاد بصوت جهور: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.





قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ
فَطَلَّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ
مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ
اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ
بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ۝١

بذور المعنى

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾: باسم الله أرسل النبي محمد ﷺ، وباسمه سبحانه نظم شؤون الناس العامة والخاصة؛ فضبط شؤون الزواج، كما فصل في أمور الطلاق؛ وبرحمة الله رزق الناس من حيث لا يحتسبون؛ وبرحمته تعالى يجازى المحسنين بإحسانهم، وعذب القرى العاتية الظالمة لتستقيم الحياة على أسس من العدل والقسط؛ وباسم الله وبرحمة الرحمن الرحيم خلق السماوات والأرض ﴿يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا».

❏ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾: إذا خاطب النبي ﷺ في أحكام الحياة، مما لم يكن من خصوصياته، فقد خاطب المؤمنون على إثره؛ وتخصيصه ﷺ بالنداء بدلا عن المؤمنين تشریف له ولهم؛ هو تشریف له بأن جعله الله تعالى أسوة للمؤمنين، وهو تشریف لهم بأن اصطفى لهم أفضل الخلق يقتفون أثره، ويتبعون سنته.

❏ ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾: الخطاب للنبي ﷺ وللمؤمنين على إثره؛ وفحواه أن إذا نويتم وعزمتم على تطليق النساء فليكن ذلك بعد اكتمال مدة العدة؛ ويكون ذلك التطليق في طهر لم تقع فيه موقعة، حتى تنقضي أقرأؤها الثلاثة.

❏ والتطليق في الحيض بدعة، وعدّها البعض كبيرة؛ غير أن حكم الطلاق ماضٍ حكمه. يقول القطب اطفيش: «والطلاق في الحيض بدعة إجماعا، وكبيرة على الأصح».

❏ ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾: أي احسبوا مدة العدة ثلاثة قروء كاملة؛ وأحصى الشيء عدّه وضبطه وحصره وقدره، وهو مشتق من العدّ بالحصى.

❏ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾: لو اختصرت الآية على ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أو على «واتقوا ربكم» لأدّت المعنى؛ ولكن الجمع بين

«الله» و«ربكم» فيه معنى زائد بليغ؛ وهو أَنَّ الله تعالى هو المستحقُّ للعبودية، وهو كذلك الذي يرَبِّكم وينظِّم لكم شؤون حياتكم، ومنها شأنُ الزواج والطلاق.

❏ والأمر بالتقوى متعلق بما مرَّ من التطليق في العدة، ومتعلق بما يأتي من النهي عن الإخراج من البيوت. ففي جميع الحالات تقوى الله هي الفاصل وهي الضابط للامتثال والالتزام. ولا شريعة ولا طاعة لله إذا خلت من التقوى.

❏ ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يُخْرِجَنَّ﴾: في نسبة البيت إلى المرأة تشريفٌ لها وصيانة لعرضها، رغم أنها غالبًا ما تكون ملك الرجل؛ كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾، ﴿وَأذْكُرَنَّ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾؛ وحتى حين تطلِّق قبل نهاية العدة، لا تزال البيت منسوبة إليها: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾؛ كأنَّ البيت يقع تحت تصرُّف المرأة، وهي أولى به من الرجل، ومن ثمَّ فهو بيئتها.

❏ والنهي هو عن خروج المطلقة من بيتها قبل تمام العدة مطلقًا؛ فالنهي عن الإخراج، وعن الخروج، أي لا يُخرجها الزوج، ولا تخرج هي بإرادتها.

❏ ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ﴾: الفاحشة هي الفعلة الشديدة السوء؛ من مثل الزنا، أو الفحش في الكلام، أو السحر، أو إيذاء أهل البيت بما لا يُحتمل، أو النشوز، أو غيرها مما هو بين ظاهر، لا ما هو غير فاحش من خلافٍ وسوء تصرُّف؛

فإن هي أتت بفاحشة مبينة يكون خروجها من البيت جائزاً، وقد يكون واجباً في حالات من الأذى المتعدّي للغير، المستبّيح للحرمات؛ كأن تغرّ بناتِه بالفاحشة، أو تكون قوادة لهنّ، أو تهدّد بالقتل والأذى أهل البيت، أو يهددها الزوج بمثل ذلك.

❏ ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾: جميع الأحكام الماضية هي حدودُ الله، لا يجوز تخطيها، ولا تجاوزها، ولا تعطيلها، بأي مبرر كان.

❏ ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾: الله تعالى شرع الأحكام، ومنها أحكام الطلاق، لصالح الإنسان، فإن هو لم يلتزم بها لحقه الضرر، وانتفى عنه النفع؛ فيكون بذلك ظالماً لنفسه، ويندرج ضمن النفس الزوج والقرين؛ فإن في ظلمه ظلم لنفسه. وقد يكون ظلم النفس بأن ينال عقابه عند الله تعالى بتعديه لحدّ من حدوده: فلا يلومنّ إلا نفسه؛ قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

❏ ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾: أيها المتعدي أنت لا تعلم لعلّ في عدم تجاوزك لحد الله، وفي التزام أحكام العدة وعدم الإخراج من البيوت أمرٌ لصالحك، من مثل عودة الودّ، وإبدال بغضها بالحبّ، وتوبتها من سبب الطلاق إن كانت هي السبب، أو ندمك وتوبتك إن كنت أنت السبب؛ أو ينفذ الطلاق كما أمر الله، وهو أبغض الحلال إليه سبحانه، فيبدّل الله كلّ واحد منكما بأفضل مما كان عليه.



التشغيل والتفعيل

❏ أطول آية استهلّت بها سورة في القرآن الكريم هي آية سورة الممتحنة: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ...﴾ ثم تأتي في الرتبة الثانية من حيث إحصاء الكلمات، بغير اعتبار للضمائر المتصلة، آية سورة الطلاق: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ...﴾.

❏ نسبة البيوت إلى النساء إيماءً بأنهنّ مستحقات للمكث فيه مدة العدة؛ وهذا ما يسمّى في الشريعة «ملك الانتفاع دون العين». والعرب تدعو المرأة بعبارة: ربة البيت.

❏ هي قاعدة كلية في التسليم لله تعالى: سلّم لله تعالى فيما أمرك به، ولا تتعد حدوده: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾، وهي صنو: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾.

❏ الفاحشة متى وردت في القرآن معرّفة فهي للزنى وما هو شبيه به من مثل إتيان الذكور من العالمين؛ وإذا وردت نكرة فهي للمعاصي الشديدة الفحش عامّة.

❏ «الخطاب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ للرسول لفظاً، والمعنى له وللمؤمنين»، وإذا أراد الله الخطاب للمؤمنين لطفه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾، وإذا كان الخطاب باللفظ والمعنى جميعاً قال له: «يا أيها الرسول» [ابن العربي].

❏ «مَنْ الشَّرْطِيَّة» في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ﴾ من صيغ العموم؛ فتنفيذ تعدي الحدود في الطلاق والإخراج، وفي غيره. وبتتبعها في كلام الله تعالى يحصل الكثير من القواعد الكلية: ﴿وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾، ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾...

❏ صيغة ﴿لَا تَدْرِي﴾ تجري مجرى المثل، وهي خطاب لكل من يصلح للخطاب، وهي مبنية على توجيه الخطاب لغير معين. فحين تسمع ﴿لَا تَدْرِي﴾ فاعلم أنه مثل جارٍ..



٥٠ من الفكر إلى الفعل

٥٠ تقوى الله تعالى ملاك الأمر كله، سواء في أحكام الطلاق، أم في غيرها من الأحكام.

٥١ التطليق في الحيض، وإخراج المطلقة من بيتها قبل انتهاء عدتها، هي أحكام يستسهلها البعض، وهي من المعاصي المشاعة التي وجب الحذر من الوقوع فيها.

٥٢ ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ حين استنفاد الأسباب، وعدم تحقق المطلوب، يسلم الإنسان أمره لله، ويتمسك بتلابيب هذه القاعدة الكلية.

٥٣ الخطاب الموجه للمؤمنين بتوجيه الأمر إلى رسولهم ونبیهم ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ فيه تشريف لهم، وإعلاء من شأنهم؛ وهو مدعاة للالتزام والاستجابة.

٥٤ الطلاق في المسيحية غير مشروع، لأنَّ الزواج عقدٌ أبدي، وعقد الزواج عقد غير منحل؛ والقيود التي وضعها القانون الكنسي تكاد تجعله مستحيلا؛ ويصبح هذا بحثا عميقا في مقارنة الأديان، وفي أصول التشريع.

٥٥ للقراءة: «من خطب الجمعة» حمو فخار؛ بخاصة سلسلة خطب ودروس حول الطلاق وأبعاده الشرعية والاجتماعية.

قال الله تعالى:

فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ
وَأَشْهِدُوا ذَوْيَ عَدْلِ مِّنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ
بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ
مَخْرَجًا ﴿٢﴾

بذور المعنى

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾:

إذا بلغت المطلقة مدة العدة المحددة لها، وشارفت على نهاية الأجل المعدود؛ فأنتم على الخيار إما أن تراجعوهنَّ أو تمضوا في طلاقكم بأن تتركوهنَّ فيخرجن من العدة مطلقات.

وفي كلا الحالين، الواجبُ عليكم أن تفعلوا ذلك بحسنِ المعاملة، وحسنِ الصحبة في حال الإمساك؛ وبمراعاة الحقوق، وعدم التعيير والشتيم، والحقد، والظلم بجميع أشكاله في حال الطلاق.

❏ ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾: في حال المراجعة يجب أن يشهد على ذلك رجلان أو رجلٌ وامرأتان. ومن راجع امرأته بلا شهودٍ، أو بشاهد واحدٍ، ومسَّها، حرَّمت عليه؛ ومن المذاهب من أجازته وعصى المراجع. والطلاق لا يُحتاج فيه إلى شهودٍ، ونسب إلى البعض أنه يحتاج إلى إشهاد، ولا يصحُّ الطلاق بلا إشهادٍ عندهم.

❏ ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾: أي أدوا شهادتكم لله تعالى لا لغرض آخر، ولا تكتموها، ولا تحرفوها بالزيادة أو النقصان، ولا تفعلوا ذلك لمصلحة عاجلةٍ أو آجلةٍ، فتظلموا الناس وتظلموا أنفسكم بالزور والكذب.

❏ ﴿ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: يوعظ بمعنى ينفعه الوعظ ويؤثر فيه؛ أي ما ذكر من قبل من تقوى الله، وإقامة الشهادة لله، وحرمة تعدّي الحدود؛ أي مجموع ما مرَّ من الأحكام جميعها، إنما ينفع الوعظ فيه من كان مؤمنا، ومن وضع الآخرة في حسبانته، ولم يتنكر لها أو يشك فيها، أو يستهتر بشأنها؛ أمَّا من كان خلاف ذلك فلا يوعظ ولا ينتفع؛ وشرط الاتعاض والانتفاع هو الإيمان.

❏ ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾: المخرج مكان الخروج من أزمته، أو هو زمانٌ للخروج منها، أو هو ذات الخروج.

❏ وهذه قاعدةٌ كليةٌ في موضوع الطلاق أو في غيره، لورود

«مَنْ الشرطية» فيها؛ فمن كان فعله وتركه، قوله وعمله، قبوله ورفضه، حركته وسكونه... من كان كل ذلك فيه مصبوغا بتقوى الله تعالى؛ وكانت التقوى له بوصلةً توجّهه في حياته؛ فإنَّ الله تعالى يفتح له مخرجا وفرجا لمشكلاته، وييسر له أمره حين المضايق والمخائق، ويجعل الحزن له سهلا.

❖ عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: لما قرأ هذه الآية رسول الله ﷺ قال: «مخرجا من شبهات الدنيا، وغمرات الموت، وشدائد الآخرة». ولقد وجّهت الآية إلى كثير من المعاني، منها: من يتق الحرام يجعل الله له مخرجا إلى الحلال، ومن يتق الله عند المصيبة يجعل الله له مخرجا إلى الجنة... واعتبار العموم أولى.



التشغيل والتفعيل

❖ المعروف ما عُرف حسنه بالعقل والشرع، وخلافه المنكر الذي ينكره العقل والشرع. شرط أن يكون العقل سليما غير مشوش، والشرع صحيحا غير مشوه.

❖ ويُشترط فيمن يؤدي الشهادة العدالة وهي: الاستقامة في الدين، وصفاء المظهر، والمروءة، والوقوف عند حدود الله، واجتناب الموبقات وما يخدش الكرامة من المحرمات، والابتعاد عن مواطن الشبهات.

- ❖ ورد أن آية ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ وما بعدها نزلت في عوف بن مالك الأشجعي، أسر العدو ابنا له، فأتى النبي ﷺ وذكر له ذلك، وشكا إليه الفاقة، فقال له: «اتق الله، واصبر، وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله» ففعل الرجل ذلك، فبينما هو في بيته إذ أتاه ابنه، وقد غفل عنه العدو، فأصاب إبلًا، وجاء بها إلى أبيه. فبينما الأب في بيته، إذ قرع ابنه الباب، ومعه مائة من الإبل غفل عنها العدو فاستاقها».
- ❖ عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «إنَّ أكثر آية في القرآن فرجا: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾».



• من الفكر إلى الفعل

• في جميع شؤون الحياة «تقوى الله» و«الإيمان باليوم الآخر» هو المعيار والمحك، وفيهما المخرج والفرج.

• قال ﷺ: «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً، ومن كل همٍّ فرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب».

• مراعاة حدود الله تعالى في الأحكام الفقهية الجزئية سببٌ لنيل رضا الله تعالى؛ أمّا الاستهتار بها فهو الحالقة؛ وإنما تكمن العظائم أحياناً في التفاصيل الصغيرة.

• هذه الآية العظيمة ميزان الدين كله، وملاك أمر الحياة كلها: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾.

• تلاوة الآية الواحدة وترديدها، بقصد التفكير فيها، والاعتبار بما جاءت به من أبعاد؛ مما ورد عن الرسول ﷺ «فجعل يرددها حتى نعست».



قال الله تعالى:

وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ
 إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝٣

بدور المعنى

- ❖ ﴿وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾: من يتق الله تعالى فيما مرَّ من أحكام الطلاق، ومن الإمساك بمعروفٍ أو المفارقة بمعروفٍ يجعل الله له مخرجا، ويرزقه من جهةٍ ومن وجهٍ لم يكن يخطر بباله، ولم يخطط له في حركية الأسباب عنده.
- ❖ وتقوى الله في مقام الرزق لازمه أن لا يريد إلا ما يريد الله من فعلٍ أو تركٍ، وأن يتحرَّى الحلال، ويجتنب الحرام، ويصرف ماله فيما أمر الله تعالى به، وأن يتيقن أن الرزاق إنما هو الله تعالى وحده لا غيره، وأن يتخذ الأسباب كما أمره الله تعالى.

❖ ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾: التوكُّل على الله هو الثقة فيما عند الله والطمع فيه، واليأس عما في أيدي الناس واليقين أنهم لا يملكون أسبابه على الإطلاق؛ مَنْ يفعل ذلك فإنَّ الله تعالى كافيه جميع شؤون حياته، وتبعات دينه، ومآلاته ومصيره.

❖ ومن عجب أن بعض أهل التفسير قال: «يدل هذا المعنى على عدم الاحتياج للكسب في طلب الرزق»؛ والحقُّ أنَّ الكسب نفسه مأمور به شرعاً، وبغيره لا يكون الرزق، إلاَّ ما كان استثناءً من ميراثٍ وهبةٍ وغيرها؛ أمَّا منطلق الحياة فيجري على أنَّ الكسب هو من شروط التوكل، وليس مستقلاً عنه.

❖ ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾: ما يأمر به الله تعالى ويريده نافذ لا محالة، ولا أحد يملك إرادةً ولا قوةً على تعطيل أمر الله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾، ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَّمَجُم بِالْبَصْرِ﴾.

❖ ولازم الآية أنَّ العبد المسلم المتوكِّل لا يريد إلا ما يريد الله تعالى، وهو مستهلك إرادته في إرادة الله جَلَّ جَلَالُهُ.

❖ ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾: كلُّ أمر وكلُّ شيء قد كتب الله تعالى له زمناً وحالاً ومكاناً وصفة، أي كتب له قدراً مقدوراً مقدراً يتم فيه: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾، وليس لأحد من الخلق في ذلك شيء، ولا يملك أن يعترض عليه سبحانه؛ ومن علم ذلك علم اليقين لازم التوكُّل على الله تعالى، ولم

يطلب أهدا سواه.



التشغيل والتفعيل

- ❏ قال أبو ذر الغفاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: جعل رسول الله ﷺ يتلو هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ فجعل يردّها حتى نعست؛ ثم قال: «يا أبا ذرّ، لو أنّ الناس كلهم عملوا بهذه الآية لكفّتهم».
- ❏ أعظم النجاة أن ينجو المرء من مضيق الوهم، وأعظم الانعتاق أن ينعثق من سجن الشرك.



• من الفكر إلى الفعل

• كان دعاء سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا عَلَيْنَا

تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْبَنَّا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.

• ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ

الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

• من أمارات التوكل على الله اتخاذ الأسباب التي

أمر الله تعالى باتخاذها، وتسليم الأمر إليه في

النتائج والثمرات التي هي خارج إرادة العبد؛

مع التكثير من الدعاء أن يوفق الله ويعين.

• التعرض للرزق والاجتهاد في دراهمه جهاد في

سبيل الله تعالى، فلا يخلون من النية.

• في الحديث القدسي: «إني أجعل المخرج للمتوكل

ولو كادته السماوات والأرض».



قال الله تعالى:

وَالَّذِي يَتَسَنَّ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نَسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ
ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ
يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾

بذور المعنى

﴿وَالَّذِي يَتَسَنَّ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نَسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ
ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾: عدّة المرأة في حالتها الطبيعية هي ثلاثة قروء،
أي ثلاثة طهورات؛ أمّا المرأة التي انقطع الحيض عنها،
وقد يئست منه؛ فعدتها لا تحسب بالقروء ولكن بمدة زمنيّة
محددة، وهي ثلاثة أشهر.

وانقطاع الحيض يكون لكبر أو لمرض، وبلوغ سنّ اليأس
ليس محددًا بدقة لكل النساء، وهو متعلق بالبيئة والوراثة
وغيرها من العوامل.

قوله تعالى ﴿إِنْ ارْتَبْتُمْ﴾ من وضع الصغيرة التي لم تحض

بعد، وكان القلب في شك وريب من كونها حاضت أم لم تحض، فحكمها في العدة حكم التي بلغت سنَّ اليأس، أي ثلاثة أشهر كذلك. غير أن الإشكال قائم؛ إذ كيف يُرتاب في كونها حاضت أو لم تحض؟

❖ ﴿وَاللَّائِي لَمْ يَحْضَنْ﴾: تابع لما قبله، أي التي لم تحض أساساً لصغرها، أي تزوّجت ودخل عليها زوجها، ولم تحض ولو مرّة؛ فعدتها ثلاثة أشهر.

❖ ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾: أمّا التي طلقها زوجها وهي حامل، فعدتها أن تضع حملها؛ ولا يجوز لها أن تكتُم ما خلق الله في رحمها من حمل: ﴿وَلَا يَجِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

❖ ﴿مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾: هي المرة الثالثة التي يذكر فيها بالتقوى، ذلك لأنَّ المقام مقام تنزه وتنزيه للعرض، ومقام تلاعب وإخفاء وظلم؛ فإن ارتفعت التقوى، فإنَّ الطلاق يصير عملية معقدة، قد تحتاج إلى تحقيقات طبية، ومتابعات قضائية، وهو ما يقع في الشعوب التي لا اعتبار للتقوى عندها حال الزواج والطلاق، وإنما المنطق هو منطق الشهوة، والضابط هو القانون وحده.



التشغيل والتفعيل

❏ إِنَّ التَّقْوَى هِيَ مَلَائِكَةُ الْأَمْرِ كُلِّهِ، وَهِيَ الْوِازِعُ أَنْ لَا يَقَعَ حَيْفٌ وَلَا ظَلَمٌ؛ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَسِّرْ لَهُ أَمْرَهُ جَمِيعَةً، وَمَنْهَ أَمْرُ الطَّلَاقِ بِالْخُصُوصِ. فَقَدْ يَسِّرْ لَهُ الرَّجْعَةَ، أَوْ يَكْتُبْ لَهُ إِفْذَا الطَّلَاقِ بِمَعْرُوفٍ وَإِحْسَانٍ، وَيَبْدَلْهُ خَيْرًا مِنْهَا، وَيَبْدَلْهَا خَيْرًا مِنْهُ.

❏ قَالَ الْقُطْبُ أَطْفِيشُ: «طَيْبُ الْهَوَاءِ وَالْمَاءِ يَبْعِدُ الْيَأْسَ (أَيَّ سِنَّ الْيَأْسِ) وَقَدْ قِيلَ: أَبْعُدُ الْيَأْسَ يَأْسُ نِسَاءِ أُنْدَلُسَ لَذَلِكَ؛ وَالْحَكْمُ لِلَّهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

❏ مِنْ عَادَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَنْ يَضْبُطَ أَحْصَ التَّفَاصِيلَ فِي الْأَحْوَالِ الشَّخْصِيَّةِ وَفِي الْمَعَامَلَاتِ: مِنْ زَوَاجٍ وَطَّلَاقٍ، وَبَيْعٍ وَشُرَاءٍ، وَدِينٍ وَمِيرَاثٍ... ذَلِكَ أَنَّهَا مَحَلُّ تَلَاعُبٍ شَدِيدٍ بَيْنَ الْبَشَرِ؛ وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْعَدْلِ فِيهَا، مَا دَامَتْ لَهُمْ مَصَالِحٌ خَاصَّةٌ مُتَعَارِضَةٌ مَعَ مَصَالِحِ غَيْرِهِمْ.



• من الفكر إلى الفعل

• جاز للمرأة أن تتكحل وتزين لزوجها، وهي في مدة العدة؛ وذلك بنية تطيب قلبه، وحمله على مراجعة الطلاق، وإعادة المياه إلى مجاريها.

• ما دام الله تعالى ييسر للمتقي، ويأمر باليسير في كل شيء، وينهى عن التعسير في كل أمر؛ فالمسلم من كان سهلاً يسيراً، هيئنا ليئنا؛ ومن تخلق بغير ذلك بعد أن يكون مؤمناً.



قال الله تعالى:

ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ
سَيِّئَاتِهِ ۖ وَيُعْظِمَ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾

بذور المعنى

﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾: الذي ذكر من أحكام وشرائع، ومن توجيه ووعظ بالتقوى، وتطمين لمن اتبع حكم الله تعالى؛ جميع ذلك أمر الله لا مجرد أمر بشرٍ يخطئ ويصيب، يعلم ويجهل، يعدل ويجور؛ وهذا الأمر لعلّوه أنزله الله تعالى إليكم من المقام الأعلى في الشأن وفي القدر، وسموه في المكان والمكانة.

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾: الذي يخاف الله تعالى في فعله وتركه، في طلاقه ورجعه، وفي كل ما أمر به؛ يغفر الله له ذنوبه الصغيرة ولو بلا توبة، والكبيرة بأن يهديه ليتوب

- منها؛ فَإِنَّ التَّقْوَى مَلَائِكُ كُلِّ خَيْرٍ، وَجَمَاعُ كُلِّ بَرٍّ.
- ❖ وَيُكْفِرُ اللَّهُ تَعَالَى السَّيِّئَاتِ كَذَلِكَ بِالسُّتْرِ وَعَدَمِ الْفُضْحِ، فَإِنَّ الْمَقَامَ مَقَامَ الْحَشْمَةِ، وَالْعَرَضِ، وَالسُّتْرِ، وَعَدَمِ التَّبَجُّحِ بِمَا وَقَعَ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنْ يَتِمَّ الطَّلَاقُ بِالتَّرَاضِيِّ، فَلَا يَفْتَضِحُ الزَّوْجَانِ لَدَى الْمَحَاكِمِ وَهَيئاتِ الْقَضَاءِ، وَلَا يَسْتَبَاحُ مَا بَيْنَهُمْ فِي أَفْوَاهِ النَّاسِ، وَبِخَاصَّةِ الشَّامِتِينَ مِنْهُمْ.
- ❖ ﴿وَيُعْظِمُ لَهُ أَجْرًا﴾: مِنْ تَمَامِ إِعْظَامِ اللَّهِ تَعَالَى الْأَجْرَ عَلَى عِبَادِهِ قَبُولُهُ مِنْهُمْ الْعَمَلَ، وَإِصْلَاحَ نِيَاتِهِمْ؛ ثُمَّ مَضَاعَفَةُ الثَّوَابِ إِلَى عَشْرَةٍ، وَإِلَى مَا لَا يَحْصَى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾. وَلَا مَبْرُرٌ لاعتبار مقاييس العباد في الجزاء والعقاب معيارًا؛ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى غَنِيٌّ كَرِيمٌ جَوَادٌ؛ مَا عِنْدَهُ لَا يَنْفَدُ، وَمَا عِنْدَ عِبَادِهِ نَافِدٌ. وَأَعْظَمُ الْأَجْرِ «رِضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى».



التشغيل والتفعيل

- ❖ مِنْ نَوَى ثُمَّ لَمْ يَوْقُقْ إِلَى الْعَمَلِ بِلَا تَقْصِيرٍ مِنْهُ فَلَهُ أَجْرُ النِّيَّةِ وَأَجْرُ الْعَمَلِ بِلَا زِيَادَةٍ، وَمِنْ نَوَى ثُمَّ عَمَلَ بِمَا نَوَى، فَلَهُ أَجْرُ النِّيَّةِ مَضَافًا إِلَى أَجْرِ الْعَمَلِ مَضَاعَفًا مِنْ عَشْرَةٍ إِلَى مَا لَا حَدَّ لَهُ «وَمَنْ زَادَ زَادَ اللَّهُ لَهُ»، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.
- ❖ «التَّقْوَى أَفْضَلُ عَمَلٍ عِنْدَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَالْمَتَّقُونَ هُمْ أَكْرَمُ عِبَادِهِ وَأَنْزَهَهُمْ، وَالْفَرْقَانُ الْبَدِيعُ الْبَيَانُ هُوَ أَصْفَى بَيَانٍ

للمتقين، وأنزه دعوة للتقوى» [التلال].
من معاني التقوى: شدة الحساسية تجاه أوامر الله تعالى ونواهيه؛ وإتيان كل ما يحبه الله ورسوله، واجتناب جميع ما يبغضه الله ورسوله ﷺ.



• من الفكر إلى الفعل

- « إِنَّ اجتناب الكبائر يمحو الصغائر. »
- الرضا بأمر الله تعالى، والاستسلام لحكمه، هو أعظم مظهر من مظاهر تقوى الله سبحانه.
- لا يمكن فهم كلام الله تعالى، ولا الاهتداء إلى العمل به، إلا إذا دخل المرء حماه، وهو محتميا بالتقوى، متلبسا بالتقوى، عاضاً على تقوى الله بالنواجذ.
- للقراءة: فتح الله كولن: « التلال الزمرّدية: نحو حياة القلب والروح. »



قال الله تعالى:

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِّنْ وَّجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمَلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَمِّرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاَسَرْتُم فَاَسْرِعُوا لَهُنَّ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾

بذور المعنى

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِّنْ وَّجْدِكُمْ﴾: الحديث عن المعتدَّة والمخاطب هو من اتقى الله ونوى أن يتعامل مع مطلَّقة بالمعروف، فهي لا تخرج من بيتها، ولقد أمر الزوج أن يسكنها في سكنها، على حسب وسعه وعلى قدر طاقته، فلا سرف ولا تقتير، كلُّ حسب قدره، كما في قوله تعالى عن تمتيع المطلقة: ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَىٰ الْمَوْسِعِ قَدْرَهُ وَعَلَىٰ الْمُقْتِرِ قَدْرَهُ﴾.

•• والآية تنهى أن يكلف الرجل بإعداد سكنى غير التي يسكنها
•• لزوجه المطلقة، وتمنع من الإعانات والإضرار بالزوج أو
•• الزوجة؛ ومن الآية كذلك يستدل على قانون النفقة وهو:
•• الوسع مع السعة، والضييق عند القتر، والقاعدة الأصولية
•• المستنبطة من الآية هي: «الأمر إذا ضاق اتسع، وإذا اتسع
•• ضاق».

•• ﴿وَلَا تَضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾: نهى الله تعالى عن الإضرار
•• بالمطلقة بالضييق والتقتير في النفقة والسكنى؛ والإضرار
•• منهي عنه سواء بقصد الإضرار أو لعلّة أخرى؛ والقاعدة
•• الفقهية هي: «لا ضرر ولا ضرار». وأصل القاعدة حديث
•• لرسول الله ﷺ جاء فيه: «لا ضرر ولا ضرار، من ضارَّ ضرَّه
•• الله، ومن شاقَّ شقَّ الله عليه».

•• ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمَلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾:
•• والمطلقة التي لا نفقة عليها إذا كانت بائنة، فإن حملها
•• يوجب على الرجل النفقة، خلاف غير الحامل البائنة فإنه لا
•• نفقة عليها؛ ومعلوم أن المطلقة الرجعية تجب عليها النفقة
•• حتى ولو لم تكن حاملا.

•• ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾: الخطاب للزوج
•• المطلق أن الرضاع يقع تحت كفالتة ومن نفقته، فوجب
•• عليه أن يدفع أجر الرضاع؛ ولقد بسطت آية سورة البقرة في
•• مسألة الإرضاع، وبينت أحكامه.

❏ ﴿وَاتَّمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾: بالتشاور وتبادل الأمر والرأي والمشورة يبت في تعيين الأجرة، بالحسنى والإحسان، وبالمتعارف عليه عند الناس، وذلك في تقدير أجرة الإرضاع، والكسوة، والفراش، والغطاء، والدواء؛ وغير ذلك مما هو من ضرورات الولد، بلا مشاحة ولا معاصرة لأحد الوالدين: ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾.

❏ ﴿وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَرِّضُوهَا لِأُخْرَى﴾: إذا لم يتم الأمر بين الزوجين بالمعروف، وتضايق الطرفان، فرضت المرأة إرضاع الولد، فعلى الزوج استئجار مرضع أخرى غير زوجته المطلقة؛ وفي جميع الحالات تبقى نفقة الإرضاع على عاتقه.

❏ وفي لفظ التعاسر عتاب لمن كان سببا للتضييق حتى فرط في الولد، وشأن الولد أن يكون محل حب الوالدين، لا محل مشاحة وتعاسر.

❏ لو لم يقبل الرضيع إلا أمه، وخيف عليه الهلاك أرغمت على إرضاعه بأجرة المثل، أو بزيادة على غيرها.



التشغيل والتفعيل

❏ من القواعد الكلية المتحكمة في موضوع الطلاق، وفي سائر مواضع العلاقات الزوجية، بل وفي جميع المعاملات

بين الناس: ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾، ﴿وَلَا تَنسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾، «لا ضرر ولا ضرار والضرر يزال»، ﴿لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾، ﴿وَاتِمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾، ﴿فَإِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَنٍ﴾، ﴿مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾، ﴿مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾، ﴿عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ﴾، ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهُ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾...

❖ اختلفت المذاهب في حكم المطلقة المبتوتة، ذهب أبو حنيفة إلى أن لها السكنى والنفقة؛ ومالك والشافعي إلى أن المبتوتة ليس لها إلا السكنى ولا نفقة لها؛ وعن الحسن وحماد لا نفقة لها ولا سكنى. ونقل عن ابن عباس: لا سكنى لها إلا إن كنَّ حوامل. واختار الإباضية أن لا نفقة لها ولا سكنى للتي اختارت نفسها للعتق، إلا إن كانت حاملا فلها النفقة. وفي رأي أبي حنيفة مراعاة للتيسير، ومجاعة لروح الشرع؛ إلا أن يكون معسرا، فالتخفيف عنه أولى.

❖ لا بديل عن الرضاع من الأم، فالحليب الاصطناعي نافلة وليس أصلا، ولا يغير من حكم الآيات شيئا.



❖ من الفكر إلى الفعل

❖ «لا ضرر ولا ضرار» هي ميزان الحكم في شأن الطلاق.

❖ نُهينا عن التعاسر والإضرار؛ والضابط هو: «ولا تنسوا الفضل بينكم».

❖ «الأمر إذا اتسع ضاق، وإذا ضاق اتسع».

❖ المؤمن سمح في جميع أحواله، وحتى حين يخاصم فهو سمح كريم.

❖ أعلت الآيات من شأن الرضاع، وحقوق الطفل، والمرأة، والرجل على السواء؛ فهو حكم مطلق حتى في الحالات العامة من زواج وعشرة، ووفاق وخلاف... إلخ.

❖ الخلية الحية في المجتمعات هي الأسرة، ولا يتكون المجتمع من أفراد ولكن من أسر؛ والحفاظ على الأسرة هو الضمان للمجتمع من الانحرافات بجميع تمثلاتها؛ ولذا تعمد مؤسسات التخريب العالمية اليوم إلى ضرب هذه الخلية بمُثل المساواة، والزواج المثلي، وإشاعة الفاحشة وتقنينها... فليرابط المسلم في هذا الشجر.

❖ للبحث: حول الأسرة من خلال القرآن الكريم، والسنة النبوية، والسيرة؛ مع الإسقاط على واقع المسلمين المعاصر. للقراءة: «الحجاب» أبو الأعلى المودودي.

قال الله تعالى:

لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا
ءَاتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا ءَاتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ
بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾

بذور المعنى

- ❑ ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾: هذه قاعدة أولى في الإنفاق، والآية تحوي أربع قواعد كليّة في الإنفاق، وفي المعاملات المالية وغير المالية عموماً؛ ولو راعى الناس هذه القواعد لأغنتهم ولكفتهم، ولما احتاجوا إلى غيرها.
- ❑ والله تعالى يأمر من وسّع عليه أو يوسّع في الإنفاق على الناس ولا يقتر؛ وذلك يكون في الإنفاق عامة، وعند الطلاق بخاصّة؛ لأنّ النفس تنقبض وتأمّر المطلّق بالتضييق على مطلّقتة، فليتق الله، وليخالف وساوس الشيطان ومكايد النفس، وليوسّع في جميع الحالات.

﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾: مَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ وَكَانَ فَقِيرًا، فَلْيُنْفِقْ مِمَّا عِنْدَهُ، عَلَى حَسَبِ قُدْرَتِهِ وَاسْتَطَاعَتِهِ؛ وَلْيَتَذَكَّرَنَّ الْقَلِيلَ الَّذِي عِنْدَهُ إِنَّمَا هُوَ مِنَ اللَّهِ، لَهُ وَلِزَوْجِهِ الْمَطْلُوقَةِ، وَلْيَقْسِمَهُ بِالْعَدْلِ وَالْقِسْطِ. وَفِي الْآيَةِ إِشَارَةٌ حَكِيمَةٌ إِلَى أَنَّ الرِّزَاقَ هُوَ اللَّهُ، وَأَنَّهُ إِذَا عَدَلَ وَأَنْفَقَ فَإِنَّ اللَّهَ الَّذِي آتَاهُ الْقَلِيلَ سَيُؤْتِيهِ الْكَثِيرَ، وَهَذَا الْمَعْنَى مُرْتَبِطٌ بِمَا قَبْلَهُ: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾.

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتَاهَا﴾: لَيْتَ شِعْرِي مَتَى تَتَحَوَّلُ هَذِهِ الْمَعَانِي وَالْقَوَاعِدُ إِلَى مُوَازِينٍ تَضْبِطُ الْعِلَاقَةَ بَيْنَ النَّاسِ فِي جَمِيعِ مَنَاحِي الْحَيَاةِ؟ فَاللَّهُ تَعَالَى لَا يَكْلِفُ النَّاسَ مَا لَا يَقْدِرُونَ، وَلَا يَكْلِفُ إِلَّا حَسَبَ مَا وَسِعَهُمْ، وَمَا أَعْطَاهُمْ مِنْ مَالٍ أَوْ صِحَّةٍ أَوْ عَقْلِ أَوْ بَيْئَةٍ... وَهَذَا الْمَعْنَى يَسْتَنْبِطُ مِنْهُ قَاعِدَةٌ جَلِيلَةٌ وَهِيَ: «الْأَمْرُ إِذَا ضَاقَ اتَّسَعَ وَإِذَا اتَّسَعَ ضَاقَ»؛ فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ غَنِيًّا وَجَبَتْ عَلَيْهِ النِّفْقَةُ بِسَعَةٍ، وَإِذَا كَانَ مُضَيِّقًا عَلَيْهِ فَقِيرًا وَجَبَتْ عَلَيْهِ عَلَى قَدْرِ اسْتَطَاعَتِهِ.

﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾: فِي الْآيَةِ بُشْرَى وَوَعْدٌ وَتَسْلِيَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَتْرُكُ الْمَضْيِقَ عَلَيْهِ دَوْمًا عَلَى ضَيْقِهِ، فَإِذَا مَا اتَّقَى اللَّهَ، وَأَنْفَقَ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ، وَإِذَا لَمْ يَتَعَاسَرَ الزَّوْجَانِ وَلَمْ يَضَارَّ الْوَاحِدُ مِنْهُمَا الْآخَرَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيَفْتَحُ عَلَيْهِمَا بِالْيُسْرِ، وَهَذَا نَظِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾.



التشغيل والتفعيل

❏ يكون الرجل سيد الرجال إذا كانت فيه ثلاث خصال من داخل البيت، وثلاثٌ من خارجها. أمّا التي من داخله: فتوسيع الطعام واللباس على أهله قدر طاقته، ومذاكرة أهله بما علم من العلم، واستعمال ما رأى من أهل الورع؛ وأمّا التي من خارجه: فاستفادة العلم من العلماء، ومخالطة أهل الورع، وطلب قوته وقوت عياله من الحلال.

❏ المعسر الذي لا يجد ما ينفقه على زوجته لا ينفخ نكاحه. وعلى المرأة أن تصبر، أو تحسب عليه ما أنفقت ديناً عليه، فإذا فتح الله عليه قضاؤه. ومن المذاهب من فرق بين الزوجين إذا لم يجد ما ينفق عليها.

❏ يقول الشيخ بيوض: «من أعظم البلايا في الدنيا أن يصل الإنسان إلى الدرجة التي يتولّى فيها الناس الإنفاق عليه، نسأل الله أن يقينا من هذا البلاء... وقد بلونا حالات من هذا، ورأينا كيف يصل المرء إلى الحالة التي يُنفق عليه فيها بسبب المرض أو الكبر أو الفاقة».

❏ سئل رجل حكيم: ما جهد البلاء؟ أي ما هو البلاء الأشدُّ، الذي يجهد صاحبه ويعنته؟ فقال: حاجة الكريم إلى اللئيم ثم يردُّه.

من الفكر إلى الفعل

- ٣٥ قال أبو الأسود الدؤلي لابنه: «يا بني، إذا وسّع الله عَزَّجَلَّ عليك فوسّع وإذا قتر عليك فاقتِر، ولا تجاود الله عَزَّجَلَّ؛ فإنه أكرم وأقدر وأجود».
- ٣٦ عن الحسن: «إنَّ المؤمن أخذ عن الله أدبا حسنا، إذا وسع عليه وسع، فإذا أقتر عليه قتر».
- ٣٧ الآية كلها تأديب للمؤمن بأدب الله تعالى، جل شأنه.
- ٣٨ ليس كالتوافق رزقا، وليس كالأخلاق الحسنة ضمانا، وليس كتقوى الله منجاة.
- ٣٩ ليحذر القضاة والحكام، ومن بيده الأمر من أهل الحل والعقد؛ ومؤسسات الصلح بين المتخاصمين، ممن يرجع إليه الأمر في تقدير الحقوق والواجبات، أن يكلفوا المعسر ما لا يطيق، أو يظلموا طرفا على حسب آخر.
- ٤٠ للقراءة: «تفسير في رحاب القرآن» إبراهيم بيوض.



قال الله تعالى:

وَكَايِّنَ مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَن أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَدَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾

بذور المعنى

﴿وَكَايِّنَ مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَن أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾: كأيّن اسم مرگب من كاف التشبيه وأيّ المنونة، وهي بمعنى كم، تفيد التكثير، (أي) وكم من قرية تجبرّت وتجاوزت الحدّ في الفساد؛ وخرجت عن اتباع أمر الله تعالى وأمر رُسله. والقرية بالمدلول القرآني هو المكان الذي يجتمع فيه الناس ولا اعتبار للقلة والكثرة، ولا للكبر والصغر في ذلك.

﴿فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾: يكفي أن يكون الحساب من الله تعالى ليكون شديداً، ووصفه بالشدة إمعان في بيان قبح ما فعلوا وما أتوا من جور وعتو، وأنه حساب لا يطاق ولا

يحتمل. أعاذنا الله من سخطه ومقتته.

❖ ﴿وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾: العذاب النكر أي الذي ليس له مثل، والذي يستنكر ولا يقدر الواصف على وصفه لشدته. وهو عذاب يوم القيامة الذي أعدّه الله تعالى للقرى العاتية المتجبرة، ومن ذلك ما كان من قبل بعثة سيدنا محمد ﷺ من مثل القرية التي قال عنها تعالى: ﴿وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ - أَمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

❖ وبعد بعثة الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ سيكون مصير الأمم والقرى العاتية هو ذاته، ولكن لا يصيبها عذاب الاستئصال وعدًا من الله تعالى.

❖ ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾: الذوق هو اختبار القليل للحكم على الكثير، استعملت للطعام ثم عمّمت للخير والشر القليل الدالّ على الكثير؛ والوبال هو: الشدّة والضيق، وسوء العاقبة؛ وأمرها هو شأنها وحالها.

❖ والمعنى أنّ هذه القرى أصابها شرٌّ وعذاب شديدٌ، فوجدت عقوبة كفرانها وعتوها وكانت هذه العاقبة خسارة كلها، لا شيء فيها من الربح. وذلك إمّا في الدنيا وإمّا في الآخرة. وجميع المصائب تندرج ضمن مفهوم الوبال.



التشغيل والتفعيل

❑ الآية تعالج «المعصية الجماعية» لا الفردية فقط؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَكَايِّنَ مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ﴾، أي أهل قرية مجتمعين، عتوا، بما في ذلك من فسق وظلم، ومن سكت عن ذلك، يقول تعالى في آية أخرى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (164) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابِ بَيْسٍ﴾. فالنجاة كانت من حظ الأمرين بالمعروف الناهين عن المنكر، أمّا العذاب فكان من نصيب المقترفين الساكتين.

❑ مما تدل عليه هذه الآية وجوب تضامن المجتمع، إذ حين يحلُّ العذاب على المجموع لا يستثنى أحد، ولكنه سيعمُّ الجميع.

❑ لم يقل الله تعالى: ﴿عَتَتْ عَن أَمْرِ رَبِّهَا﴾ وحاشا الله أن يعتو عليه أحد ويطغى عليه؛ ولكن العتو والطغيان يكون عن أمر الله لا عن الله، وهو بمعنى الاحتقار والاستخفاف.



❦ من الفكر إلى الفعل

❦ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على كل مسلم؛ لئلا يحق العذاب على الأمة.

❦ قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر، أو ليوشكنَّ الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يُستجاب لكم».

❦ صارت البشرية اليوم أكثر ارتباطاً ببعضها من ذي قبل، بفضل وسائل التواصل المختلفة؛ ومن ثم ينبغي إعادة تعريف «المعصية الجماعية»، ومسؤولية كل طرف حيال ما يقع عالمياً.

❦ من خاف عذاب الله سبحانه سلم من أمراض قلبية وعقلية وجسدية لا تحصى؛ على أن يوثق ذلك بالرجاء والطمع فيما عند الله تعالى، حتى لا يكون من القانطين.

❦ للبحث: مفهوم «الأمر» في القرآن الكريم، وإسقاط المفهوم على السياق الحضاري للمسلمين؛ بنزعة عملية راشدة.



قال الله تعالى:

أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ
ءَامَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾

بذور المعنى

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾: يؤكد الله تعالى على الوعيد المنتظر لهؤلاء العتاة؛ وفيه عبرة لأولي الألباب الذين يتوجه إليه الحديث في هذه الآية.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾: دلَّت الآية أن الخطاب لا يكون إلا لذوي العقول والألباب، وأنه لا ينفع من لا قلب له ولا لب؛ وحتى في بيان مصير الفاسقين فإن التنبيه والتحذير موجه لمن ينفعه، أمّا من لا ينفعه فلو حذرته ألف مرّة لن يسمع: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾. والتقوى المأمور بها هي التي تكون

من المعاصي والآثام، لا من الكفر والشرك؛ ذلك أنهم مؤمنون قد اتقوا الشرك بإيمانهم، ولذا خوطبوا بـ«فاتقوا الله».

❏ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾: الذكر المنزّل على المؤمنين هو النبي محمد ﷺ، وإنما عبر عنه بالذكر؛ لأنه يواظب على الذكر والتذكير، ويلازمه ملازمة شديدة، حتى صار هو نفسه ذكرا. ودليله باقي الآية: ﴿رَسُولًا﴾.

❏ وقيل الذكر والرسول هنا هو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ وقد يراد بالذكر الشرف كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾؛ والصواب الجمع لا الترجيح؛ ذلك أنّ الذكر جاء عبر مراحل أولها مع سيدنا جبريل، وثانيها مع سيدنا محمد عليهما السلام، وبه حصل الشرف والذكر الحسن للمؤمنين عند الله سبحانه وعند الخلق أجمعين..

❏ وتنكير الذكر في الآية ﴿ذِكْرًا﴾ للتعظيم والتكثير.



التشغيل والتفعيل

❏ الإمعان في النذير والوعيد، والتشديد في وصفه، من صفات الرحمة واللطف لله تعالى؛ ذلك أنّ من أحبّك وحرص على نجاتك بالغ في تحذيرك من المهالك والمواقع؛ ومن أبغضك ولم يهتّم بشأنك، خفّف من التحذير، وترقّب

هلاكك.

❖ «عذاب الدنيا خاصٌّ وعمُّ، وعذاب الآخرة خاصٌّ بكل فردٍ على حده».

❖ جمع الله تعالى في الآية بين وصفين: اللب ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾، والإيمان ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ فلا فائدة ترجى من عقل بلا إيمان، ولا خير في إيمان مزعوم بلا عقل.

❖ كل ما جاء من الله تعالى فهو منزل من العلياء، ومثال ذلك: الوحي، الرسل، الذكر، القرآن، الحديد، الماء، الحكم، السلطان... إلخ.



من الفكر إلى الفعل

- ١٠٠ إنما يتقي الله من كان ذا قلب وعقل، وذا فهم ووعي؛ ولا تفاضل بين الناس إلا في التقوى.
- ١٠١ إنزال الله تعالى لنا ذكرا، متمثلا في رسول وملك؛ هو رحمة بنا، ودعوة لنا أن نكون من الشاكرين.
- ١٠٢ «من لا عقل له لا خطاب له» قاعدة كلية.
- ١٠٣ اللهم إنا نسألك التقى والهدى، والعفاف والغنى، وحسن الخاتمة.



قال الله تعالى:

رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن
بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا نُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾

بذور المعنى

﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾: الذكر الذي نزله
الله تعالى هو الرسول ﷺ كما في معنى من معاني الآية،
ويكون ﴿رَسُولًا﴾ بدلا عن ﴿ذِكْرًا﴾؛ وهو موصوف بأنه يتلو
على أولي الأبواب وعلى الناس جميعا، آيات الله المبيِّنات؛
لا يمل في ذلك ولا يفتر؛ فهو حين كان حيًّا تلا الآيات
بلسانه، وحين توفاه الله تعالى ترك الآيات في كتاب مبين،
هو القرآن الكريم؛ وتركها في صدور المؤمنين، تتناقلها
الأجيال جيلا عن جيل مشافهة، إلى يوم الدين.

﴿لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾: أي أن الله تعالى الذي أنزل الذكر، وبعث الرسول، إنما أراد أن يخرج الذين آمنوا من الظلمات إلى النور؛ أو أن الذكر والرسول نفسه إنما يقصد به إخراج الذين آمنوا من ظلمات العتو والجحود والشرك والكفر والنفاق إلى نور الصلاح والإيمان واليقين؛ لكن شرط ذلك أن يؤمن المتلقي بما جاءه من الله، وأن يصدّق إيمانه بالعمل الصالح، فلا يفصل بين الإيمان والعمل الصالح إلا من جحد نفسه. وفي آية سورة البقرة: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

﴿وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا نُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: تكرار شرط الإيمان مقرونا بالعمل الصالح تذكيرٌ حكيمٌ بضرورة أن نقرن بينهما؛ وجزاء من فعل ذلك جنات خالدة؛ وجرىان الأنهار كناية عن دوامها، ودوام نعيمها.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾: هي دائمة لا آخر لها، وهو جزاء موفور ونعيم مقيم.

﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾: في بداية السورة ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾؛ وهنا في خاتمتها تحقّق هذا الرزق الحسن؛ والرزق رزقان: دنيوي وأخروي؛ فالأول متاع حسنٌ من مال وأهل وصحة وعافية وغيرها؛ والثاني هو الجنة الدائمة الخالدة، وهي التي فيها

«ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».



التشغيل والتفعيل

- ❑ تحري الرزق الحلال في الدنيا مقدمة وسبب لنوال الرزق الحسن يوم القيامة.
- ❑ ما ينتظر المؤمن من نعيم لا يقدر على عدده وإحصائه عقل عاقل.
- ❑ اللبُّ هو العقل النافع لصاحبه، وهو الذي يرشده إلى الحق والخير، ويحذره من الباطل ومن الشر؛ والعاقل من اتعظ بغيره، أمّا من لا تنفعه الموعظة فلا اعتبار لعقله، والقاعدة أنه «ليس كلُّ من يدعي العقل عاقل».



من الفكر إلى الفعل

اللهم أكرمنا بنور الفهم، وأخرجنا من ظلمات الوهم، وانشر علينا رحمتك، وابسط علينا من خزائن علمك وحلمك؛ يا أرحم الراحمين.

واجب المسلمين اليوم التأسيس لاقتصاد قوي، على أسس من شرع الله؛ لكي يكون بديلا عن الاقتصاد الربوي، الذي لا يزال يهيمن على حركة المال في العالم؛ ومعلوم أن لغة الأرقام هي المحددة للفعالية، لا مجرد الخطابات والكلمات.

من دعاء الرسول ﷺ: «اللهم اجعل في قلبي نورا، وفي سمعي نورا، وفي بصري نورا، وفي جسمي نورا».



قال الله تعالى:

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ
بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ
بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾

بذور المعنى

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾: ورد في القرآن الكريم ذكر السماوات السبع في أكثر من آية، ولكن الأرضين السبع لم يرد ذكرها إلا في هذه الآية؛ ولا يُعلم هل المقصود وجود سبع كرات لها نفس خصائص الكرة الأرضية في الكون كله؟ أو أن الأرض التي نعيش عليها تنقسم إلى سبع طبقات كما ذهب إليه العلم الحديث؟ أو المراد الأقاليم والقارات السبعة التي قسمها الناس جغرافياً؟ كل ذلك ممكن، والمؤكد أن علم الإنسان قاصرٌ وتسليمه بأن الأرضين مثل السماوات سبعٌ، والتسليم بذلك

على أي وجه من الوجوه واجب.

❏ دَلَّ خَلْقَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ، وَعَلَى أَنَّهُ يَبْعَثُ وَيَحْسَبُ، وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ الرَّسُولَ وَالذِّكْرَ لِيَكُونَ حِجَّةً عَلَى الْخَلْقِ، وَنَظْمَ الْكُونَ لِيَكُونَ دَلِيلًا عَلَى الْحَقِّ.

❏ ﴿يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾: أي ينزل الأمر فيما بين السماوات والأرضين، أي الأمر الذي يدبر به تعالى شأن الكون ونظامه، أو الأمر الذي نظم به حياة الناس من تشريعات وأحكام جاءت من السماء، ونزلت كما في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾. قال سبحانه: ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾، وقال: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾.

❏ ﴿لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: من يدرك سعة الكون، وحقيقة الفلك، وعظمة خلق الله تعالى في السماوات والأرضين، لا بد أن يدرك أن الذي خلقها على كل شيء قدير، وإذا جحد ذلك إنما يكون جحوده استكبارا وعنادا. ولا اعتبار لعلم لا يورث عملا، ولا لعلم يقف عند التفاصيل ويتنكر للغايات والأسباب الأولى، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾.

❏ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾: لولا علم الله تعالى لما كان من أمر السماوات والأرض ما كان، من نظام وإحكام وروعة وإبداع؛ وشيء من علم الإنسان القاصر يصنع به ما يحير العقول من أفلاك وغيرها، فما بالك بعلم الله

تعالى المطلق؛ وإدراك ذلك يزيد الإنسان تواضعاً، ويزيده ارتباطاً به سبحانه. ومن أسف أن علم الفلك المعاصر أدار ظهره للخالق وللإيمان، وأن علم العقيدة في عصر ضعف المسلمين أدار ظهره للكون والفلك.



التشغيل والتفعيل

❖ حَدَّثَ صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَكُنْ يَرَى قَرْيَةَ يَرِيدُ دُخُولَهَا إِلَّا قَالَ حِينَ يَرَاهَا: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَمَا أَظْلَلَنِي، وَرَبَّ الْأَرْضِينَ السَّبْعِ وَمَا أَقْلَلَنِي، وَرَبَّ الشَّيَاطِينِ وَمَا أَضَلَلَنِي، وَرَبَّ الرِّيَاحِ وَمَا ذَرِينِي، فَإِنَّا نَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَخَيْرِ أَهْلِهَا، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ أَهْلِهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا».

❖ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَتَلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ سَرَقَ مِنَ الْأَرْضِ شَبِيرًا طَوَّقَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ». وَهَذَا الْحَدِيثُ دَالٌ عَلَى أَنَّ مَعْنَى السَّبْعِ «الْأَرْضِينَ» هُوَ طَبَقَاتُ الْأَرْضِ السَّبْعَةِ.

❖ يَقُولُ الْقَطْبُ اطْفِيشُ فِي التَّيْسِيرِ: «وَقِيلَ: سَبْعُ أَرْضِينَ مَتَمَّاسَةٌ يَحْمَلُهُنَّ ثَوْرٌ عَلَى صَخْرَةٍ» وَوَصَفَ هَذَا الْقَوْلُ بِأَنَّهُ «تَخْلِيْطٌ» وَعُنُوْنُهُ الْمُحَقِّقُ إِبْرَاهِيمُ طَلَايِي بِ«رَدِّ خَرَاْفَاتِ الْأَقْدَمِيْنَ».

من الفكر إلى الفعل

النظر في الكون، والبحث في أسرار السماوات والأرض، عبادة لها ذات أحكام العبادات الأخرى من صلاة وصيام؛ ومن تنكر لها عصى، بخاصة في مستوى الأمة، فهو فرض كفائي على مجموع المسلمين؛ لئلا يكونوا عالة على غيرهم. للقراءة: «الإنسان والإيمان» محمد باباعمي.





قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَتَّغِي مَرَضَاتِ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ

عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾

بذور المعنى

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾: بسم الله خوطب رسول الله ﷺ، وباسمه ولأجل اسمه كان نبياً مرسلًا، وإلى اسمه يحتكم الخلق فيما تنازعوا فيه، ومن رحمته يستمدون العون والتوفيق والسداد فيما يأتون وما يذرون من أمور دنياهم وآخرتهم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾: هو افتتاح شديد الوقع للقارئ أول وهلة وهو يستحضر العتاب الشديد للنبيء الكريم، وهو استهلال دالٌّ على أن القرآن ليس من كلام محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإلا لما عاتب نفسه؛ وإنما هو من

جهة أعلى، هو من رب محمد رب العالمين سبحانه. إِلَّا أَنْ الشدة لن تلبث أن تتحوّل إلى رحمة ولطف في ذات الآية الأولى: ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

❖ يجب أن نفرق بين تحريم الحلال وتحليل الحرام الذي هو من الكفر البواح، وحاشا رسول الله ﷺ أن يفعله؛ وبين كون الرسول ﷺ حَرَّمَ على نفسه ما أحلَّ الله له، أي منع نفسه منه تنزُّهاً وابتغاء لمرضاة أزواجه، وذلك ما فعله عَلَيْهِ السَّلَامُ، فجاءه العتاب من الله تعالى أن لا يعود إلى ذلك.

❖ لم يبين الله تعالى ما هو هذا الشيء الذي حرّمه الرسول على نفسه، ابتغاء مرضاة أزواجه؛ إِلَّا أَنَّ السياق دالٌّ على أنه من الأعمال المحللة التي تكون بين الأزواج، وأنَّ زوجاته آذينه حتى أرضاهنَّ فترك ما أحلَّ الله له من أمر، بالحلف على أن يتركه ولا يأتي مثله أبداً؛ وجاءت الأحاديث مفصلة في بيان ذلك من مثل تحريمه العسل بدعوى أَنَّ ريحه مثل ريح المغاير، إرضاءً لعائشة وحفصة؛ أو هو تحريمه لمارية على نفسه، إرضاءً لحفصة؛ إِلَّا أَنَّ عدم التفصيل في ذلك يعلمنا أن لا نفصل في ذكر دقائق الأسرار مما يقع بين الأزواج، وهو أدب جمٌّ نأخذ منه العبرة، ولا نسأل عن جزئياته.

❖ ﴿تَبَتَّغِي مَرَضَاتِ أَزْوَاجِكَ﴾: أي لأجل أن ترضي بعض أزواجك حلفت على ترك ذلك الشيء الحلال؛ وهذا لا يليق بك، وليس لهنَّ أن يفرضن عليك أمراً قد منعك الله

منه، أو يمنعك من أمر قد أجازه الله لك. وابتغاء مرضاة الأزواج مما درج عليه الناس في علاقاتهم الأسرية، وهو كثير الوقوع؛ لكن لا ينبغي أن يتجاوز فيه إلى الحلف، ولا إلى ظلم جهةٍ على حساب أخرى؛ بخاصّة عند تعدد الزوجات، وعند اشتداد الغيرة بينهنّ؛ وما ورد في ذلك صدر هذه السورة دالٌّ على نبوة النبيء وعلى إنسانيته عَلَيْهِ السَّلَامُ: فهو نبيء إنسان، وإنسان نبيء ﷺ.

❖ ولعل جملة ﴿تَبَتَّغِي مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكَ﴾ تدل على أنّ العتاب متوجه إليهنّ لا إليه عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ وإنما عوتبن من خلاله، وهو أسلوب بليغٌ في التربية، بأن تنصح من أطاع وتقصد بنصحك من لم يطع، فيكون ذلك شديد الوطء عليه.

❖ ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: غفور لك ما أتيت من مكروه، ورحيم بك وبزوجاتك. ويقال «أتى رسول الله ﷺ خلاف الأولى»، ولا يقال «عصى»؛ كما هو الشأن في «عبس»، أو مصير «الأسرى»... وغيره مما عوتب فيه عَلَيْهِ السَّلَامُ، ونزل على إثره قرآن يتلى إلى يوم القيامة.



التشغيل والتفعيل

❖ سميت السورة «سورة التحريم» باعتبار هذه الآية، أي تحريم النبي ﷺ ما أحلَّ الله تعالى له.

❏ لم يرد نداء من الله تعالى لرسوله محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ باسمه «يا محمد» وإنما ورد النداء له ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾، و﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ تعظيماً لشأنه ولشأن نبوته ورسالته؛ وفي حق الأنبياء الآخرين نودوا بأسمائهم: ﴿يَا آدَمُ﴾، ﴿يَا نُوحُ﴾، ﴿يَا مُوسَى﴾، ﴿يَا عِيسَى﴾.

❏ الله تعالى في الآية عتب لرسوله لا عليه؛ وموضوع العتاب أنه ضيق على نفسه ما وسعه الله عليه؛ والفرق شاسع بين «العتاب على»، و«العتاب ل» أي لصالحه.

❏ «كان رسول الله ﷺ يشتد عليه أن يوجد منه ريح غير طيبة، وكان يعجبه أن يوجد منه الريح الطيبة أو يجدها».

❏ كثير مما ورد في التفاسير عن سبب نزول الآية فيه ضعف في السند، وضعف أشد في المتن، بحيث نسب إلى أمهات المؤمنين الكذب والظلم والتواطؤ مما ننزههن عنه؛ وقبول هذه الأخبار على علاتها يعرض بيت النبوة لشكوك نبرته منها، بخاصة ما كان من قصة مارية غير الصحيحة؛ قال الألويسي: «وبالجملة الأخبار متعارضة»، قال النووي: «الصحيح أن الآية في قصة العسل لا في قصة مارية»؛ ونرى في تنزه القرآن عن ذكر السبب توجيهها ربانياً حكيماً، ولو كانت الحكمة إيراد التفاصيل لأوردها الله تعالى.

❏ ﴿لَمْ تُحْرَمْ﴾ استفهام من بمعنى «الإنكار» والقاعدة الكلية أن «الإنكار من الله تعالى نهي».

قال القاضى عىاض فى كتابه الشفا من حقوق المصطفى: ﴿انظر كيف بدأ الله بثبات سيدنا محمد ﷺ وسلامته قبل ذكر ما عتبه عليه، وءيف أن يركن إليه، فى أثناء عتبه براءته، وفى طى تخويفه تأمينه وكرامته﴾.



• من الفكر إلى الفعل

• ابتغاء مرضاة الأزواج مما أمر به الشرع، شريطة أن لا يكون تحليلاً لحرام، أو تحريماً لحلال؛ وفيه دليل على لطف العشرة والمعاملة، والرفق بالأهل.

• جاء في الأثر، وعدّه البعض حديثاً: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي، ما أكرم النساء إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم».

• كان النبي ﷺ رفيقاً بمن حوله، كان يضغط على نفسه لحساب راحة الناس المحيطين به.

• للقراءة: «الشفاء بتعريف حقوق المصطفى» للقاظمي عياض. و«نساء النبي ﷺ» لعائشة عبد الرحمن.



قال الله تعالى:

قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ
الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾

بذور المعنى

﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾: فرض الله أي عيّن، وذلك مثل قوله تعالى: «نصيبا مفروضا»؛ والتحلّة، تفعلة من حلل أي جعل الفعل حلالا؛ وأصله تحللة فأدغمت اللامان؛ وهو مصدر سماعيٌّ؛ ومثله تعلّة.

وتفيد الآية أنّ الله تعالى جعل لنبيّه وللمؤمنين سعة في التحلل مما التزموا تحريمه على أنفسهم؛ ولقد أوجب الله تعالى لهم ولمصلحتهم مخرجا من الأيمان، و«تحلّة أيمانكم» أي ما تنحلُّ به أيمانكم قبل الحنث، وما يكون كفارة عن اليمين بعده؛ ومن رحمته الله تعالى أن جعل لكل

من حلف أن لا يفعل شيئاً وهو في الحكم حلال، له أن يكفر عن يمينه بكفارة اليمين، ويعود إلى التوسيع على نفسه.

❖ أسلوب الالتفات من مخاطبة الرسول ﷺ إلى مخاطبة المؤمنين جميعاً فيه دليل على تشريع الحكم، وعلى تعميمه، وأنه ليس من خصوصياته عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ وذكر بعض المفسرين أنه ﷺ حلف، وأنه تحلل من حلفه ولم يحنث، ولم يكفر كفارة اليمين.

❖ ﴿وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾: هو سيدكم الذي تولى أمركم، وراعى لكم المصلحة، وفرض الأحكام لفائدتكم ولصلاح أمركم؛ والولي هو الناصر ومتولي تدبير ما أضيف إليه، وهو كناية عن الرؤوف والميسر. قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ وقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ وهكذا تشريع الله نوراً، وتشريع البشر ظلمات، إلا ما كان منه مستمداً من نور الوحي ومن الله سبحانه.

❖ ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾: هو سبحانه عليم بما يصلح شأنكم فأحله لكم، وبما يفسده فحرّمه عليكم، وهو الحكيم في جميع تشريعه، ولا يفعل تعالى إلا ما هو صوابٌ وحكمةٌ ومصلحةٌ، رحمةٌ منه بعباده. والله سبحانه يحمل عباده من خلال شريعته إلى الرشد والسداد، وإلى جميع ما فيه الحكمة واليسر والمصلحة العاجلة والآجلة.



- ❖ خوّل الله تعالى للناس وضع القوانين، وهداهم إلى أصولها وإلى القواعد العامّة، وما صادم منها روح الدين كان وبالاً على البشر؛ أمّا في العلوم فتركهم لشأنهم، ليكتشفوا ويطوروا، ذلك أنها لا تدخل في تقنين ما بين البشر من قوانين فيها ظالم ومظلوم، وقوي وضعيف.
- ❖ قال ابن عاشور: «اختلف الفقهاء فيمن حرّم على نفسه شيئاً مما أحلّ الله له على أقوال كثيرة أنها القرطبي إلى ثمانية عشر قولاً؛ وبعضها متداخل في بعض، باختلاف الشروط والنيات فيؤول إلى سبعة».



❦ من الفكر إلى الفعل

- ❦ من كان الله مولاه فلا حاجة له إلى مولى غيره .
- ❦ لكل مسألة في الشرع حلٌّ ومخرجٌ؛ ولا يتعبَّد الناس بالإعنات والتعسير، بل بالسعة والتيسير .
- ❦ قال رسول الله ﷺ: «وإني والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا كفرتُ عن يميني، وفعلتُ الذي هو خير»، وفي هذا توجيه للمسلمين في يمينهم .
- ❦ قال رسول الله ﷺ: «من نذر أن يعصي الله فلا يعصه» .



قال الله تعالى:

وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ
وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا
نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣١﴾

بذور المعنى

﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾: أفضى رسول الله ﷺ إلى حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا سراً، وأخبرها بخبر شريطة أن لا تبوح به لغيرها، وأن تكتمه لنفسها. والخبر هو أن أبا بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا سيَلِيان الخلافة من بعده، وزاد البعض تحريم مارية، وتحريم العسل على نفسه. ولكن، تبقى الحكمة أن الله تعالى يعلمنا المبدأ، ولا يعيننا التفصيل في شيء، ولو شاء تعالى لفصل.

لما أفشت بعض نساء النبي ﷺ السرَّ قيل طلقهنَّ، وقيل: لم يطلقهنَّ ولكن أقسم أن لا يدخل عليهنَّ شهراً؛ وقيل أمر

رسول الله مناديا نادى أمام باب المسجد أن رسول الله لم يطلق نساءه، فخيرهن وبدأ بعائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، ثم تابع نساءه فاخترن جميعا الله تعالى ورسوله ﷺ.

❖ ﴿فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾: لما أخبرت حفصة عائشة بالسِّرِّ، أعلم الله تعالى نبيه بما نبأت به، أي صار عَلَيْهِ السَّلَامُ مطلعا على أنها أفشت به.

❖ ﴿عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ﴾: أعلم عَلَيْهِ السَّلَامُ حفصة ببعض ما أسرت به عائشة من سِرِّ، ولم يعرفها بالبعض الآخر مما قالت وما أفشت من سِرِّ؛ أو أنه لم يخبرها أنك أنبأت عائشة؛ وذلك أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يستقصي، قال الإمام علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ما استقصى كريم قطُّ» ومن أكرم من رسول الله ﷺ. ويجوز أن يكون ما عرّفه رسوله الله ﷺ هو ما علم من المسائل الثلاثة، وما لم يعرفه وأعرض عنه، مما بقي سراً بين النبي ﷺ وزوجاته، ولم يفشه أحد، ولا يعلمه إلا الله تعالى.

❖ ﴿فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ﴾: أي أعلمها أنك لم تكتمي السِرِّ، بل أفشيتَه. ونبأً وأنبأ مترادفان، وهم بمعنى أعلم وأخبر، ولم يسمع فعل مجرد لهما.

❖ ﴿قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا﴾: أي من أعلمك بأني لم أكتم السِرِّ؟ وهي تريد معرفة من أفشى سرّها، وهي قد أفشت سرّه عَلَيْهِ السَّلَامُ.

❖ ﴿قَالَ نَبَّأِنِي الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾: بين لها أن الله تعالى وهو عليم بحالها وبمقالها، وخبير بما أسرت وما أعلنت؛ وهو عليم أنها أفشت السرَّ، وخبير بخفايا القلوب؛ هو سبحانه الذي نبَّأني وأخبرني، وليس عائشة التي أفضيت لها بالسرِّ.



التشغيل والتفعيل

- ❖ الإنسان يتصرف في بيته بعفوية واسترسال، مما يجعله يبرز عاريا في أموره كما يبرز عاريا في جسده، ولذا كان جميع ما بداخل البيت سرًّا، حتى ولو لم يصرِّح به.
- ❖ الصفة لا تعفي من المسؤولية بل تزيد منها (صفة زوجات النبي لا تعفيهنَّ من المسؤولية الشرعية).
- ❖ الخبر في لغة القرآن الكريم أعمُّ من النبأ، ذلك أنَّ النبأ غالبا ما يكون صحيحا أمَّا الخبر فقد يكون صحيحا أو غير صحيح؛ والنبأ ما لا يعلمه الذي ينبأ به، أمَّا الخبر فقد يكون يعلمه أو لا يعلمه.
- ❖ أسرَّ فعلٌ مشتقٌّ من السرِّ، والهمزة فيه للجعل، أي جعله ذا سرًّا؛ ويقال: أسرَّ في نفسه، إذا كتم سرَّه: ﴿فَأَسْرَهَا يُوَسِّفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾؛ وأسرَّ إليه، إذا حدَّثه بسرًّا فكأنه أنهاه إليه، كما في الآية التي نحن بصدددها؛ ويقال أسرَّ له، إذا أسرَّ أمرا لأجله ولصالحه.

❖ من الفكر إلى الفعل

❖ من آداب الحديث عن أسرار الأسر والأزواج أن يرمز.

❖ ويلغز، وأن لا يفصح بكل التفاصيل، إلا عند الحاجة؛ وهذا أسلوب السورة مع رسول الله ﷺ.

❖ قال سفيان الثوري: «ما زال التغافل من فعل الكرام».

❖ عدل الله تعالى عن ذكر اسم «بعض أزواج النبي»، وعدل عن الإفصاح بما أسرت به؛ ترفعا عن أن يكون المقصد معرفة الأعيان، وإنما المراد معرفة الصفات، والتخلق بأخلاق القرآن في مثل هذه المسائل.

❖ «أولى الناس بمعرفة سر الرجل زوجه»، و«أواصر الزوجية أقوى من أواصر الخلة».

❖ «السرُّ أمانة» وإفشاؤه خيانة.



قال الله تعالى:

إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ
فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ
بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾

بذور المعنى

﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾: الخطاب لحفصة وعائشة، أي المنبئة والمنبأة؛ أمرهما تعالى بالتوبة على ما بدر منهما مما آذى رسول الله ﷺ وأغضبه. غير أن عدم ذكر اسميهما في كامل السورة، وفي مقام التأنيب بالخصوص، فيه من التعليم والتربية لنا ما فيه، من أن نتجنب ذكر الأسماء عند النقد والملاحظة، وذلك أدعى لمساعدة من أخطأ أن يعود.

أمَّا تأنيب التي أنبأت فواضح عدم صواب فعلها بأن أفشت السر؛ أمَّا التي أنبئت فلأنه كان عليها أن تنهاها عن ذلك،

وأن تخبر زوجها بما أذاعته من سرٍّ؛ والمستمع إلى السرِّ بلا نهي مشارك لفاشي السرِّ.

❖ ﴿فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمْ﴾: صغت أي مالت وزاغت عن الحقِّ، وذلك أنهما أحبتا ما كره رسول الله ﷺ من أمر العسل، أو الجارية، أو غير ذلك مما لم تذكره السورة. وقيل فقد صغت قلوبكما أي مالت إلى التوبة وإلى الحقِّ. والمؤدى واحد في كلا المعنيين. وسمي سماع الكلام إصغاء لأنَّ المستمع يميل أذنه وسمعه إلى من يكلمه.

❖ ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَ عَلَيْهِ﴾: أي تتعاوننا وتتواطأ على رسول الله ﷺ بما يكره، وبما يؤذيه؛ وإن تظاهرا هو ضد إن تتوبا؛ أي إن تصرنا على العود إلى ما بدر منكما عوض أن تتوبا.

❖ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾: أي أن الله تعالى ناصره لا محالة، وكذلك جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ سيقف إلى جواره ويؤيده، وكذا خيار المؤمنين جميعا في زمانه عَلَيْهِ السَّلَامُ وبعد زمانه، بأن يتولاه وينصره. قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾.

❖ وفي قوله تعالى: ﴿وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تعريض أنكما إن لم تتوبا، وإن تظاهرتما عليه؛ فستحشران مع غير الصالحين، أي من جهة مواجهة الله وللملائكة وللمؤمنين الصالحين.

❖ ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾: أي أن الملائكة سيظاها بعضهم بعضا ويعين بعضهم بعضا، لينصروا رسول الله ﷺ

ويؤيدوه. لعلَّ تخصيص جبريل من بين الملائكة، وعبارة بعد ذلك، معنى إضافي لنوع النصر، كأن تكون مباشرة لا بواسطة، مثلما وقع في بدر من نصره الملائكة للمسلمين في حرب الكفار مباشرة لا بواسطة.



التشغيل والتفعيل

❑ هذه الآية تفسرها آية سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزُوجِكْ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتَّعَنَّ وَأَسْرَحَنَّ سَرَاةً جَمِيلًا (28) وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. وقد جمع جل المفسرين بين وقائع آية التحريم ووقائع آية الأحزاب.

❑ الله تعالى مولى رسوله يوليه عناية خاصة، ويتولى أمره من غير واسطة، وبواسطة الملائكة والمؤمنين، كما يشاء سبحانه: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾.

❑ الآية دليل على أن الله تعالى مؤيد وناصر لنبيه على جميع من يؤذيه أو يظاهر عليه؛ كيف وقد ذكر معه جبريل، والصالحين من المؤمنين جميعا، والملائكة بلا استثناء؛ في مقابل إذاية زوجته له، ومظاهرتهم له؛ ولو كان الأمر أكثر إذاية من ذلك، فإنَّ النصر ستكون أقوى وأعظم شأنًا.

❑ جمعت الآية بين ﴿وَإِنْ تَطَّاهَرَا عَلَيْهِ﴾ و﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾، و«ظهير» وهي آية في استعمال الجناس؛ وكل ما كان من مظاهره، وظهير، وإظهار؛ فهو مشتق من الاسم «الظهر»؛ ولم يسمع لهذه المادة فعل مجرد.



من الفكر إلى الفعل

واجب على كل مؤمن أن ينصر رسل الله جميعا،
ورسوله محمدا ﷺ في كل الحالات، وبكل ما
أوتي من قوة.

الآية تحذر من يؤذي رسول الله ﷺ بأي نوع
من الإذابة: الفكرية، والخبرية، والحكمية،
والقلبية...

حين يفشي إليك أحد سرا وجب عليك أن تردعه،
وتحذره من مغبة فعله؛ وإلا كنت شريكا له في
ذنبه.

أولى الناس بحفظ السر زوج الرجل، والرجل
بالنسبة لسر زوجته؛ ثم ما يكون داخل البيت
بين الأبناء والآباء.

الله تعالى ناصر رسوله وناصر كل من اقتفى
آثار رسوله، وصلح دينه وعمله.



قال الله تعالى:

عَسَىٰ رَبُّهُٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبَدِّلَهُٗٓ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَنَّ
مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَاحِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ
وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾

بذور المعنى

﴿عَسَىٰ رَبُّهُٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبَدِّلَهُٗٓ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَنَّ﴾: عسى من الله تعالى واجب، وأما من غيره ففعل ماضٍ ناقص يفيد الترجي في الأمر المحبوب، وهو للإشفاق في الأمر المكروه. أي وعد من الله تعالى إن طلقك رسول الله ﷺ أن يخلفه أزواجاً خيراً منكناً؛ والله تعالى أغنى أن يعجزه أحد من خلقه في شأن.

﴿مُسْلِمَاتٍ﴾: أي خاضعات لله سبحانه، يُسلمن أمرهن له تعالى.

﴿مُؤْمِنَاتٍ﴾: موحِّدات لله تعالى حق التوحيد، ومعتقدات

حَقُّ الْإِعْتِقَادِ، وَعَامَلَاتِ عَمَلًا صَالِحًا مُصَدِّقًا لِلْإِيمَانِ.

❏ ﴿قَانِتَاتٍ﴾: امْرَأَةٌ قَنُوتٌ أَي طَائِعَةٌ لِرُجُوئِهَا مُسْتَكِينَةٌ، أَوْ أَنَّهُنَّ يَقْمْنَ اللَّيْلَ؛ وَالْقَنُوتُ فِي الصَّلَاةِ الْقِيَامُ بِاللَّيْلِ. وَقَنْتَ لِلَّهِ لَزِمَ طَاعَتَهُ وَأَقْرَّ لَهُ بِالْعِبُودِيَّةِ؛ أَوْ هُنَّ يَطْلُنُ الْقِرَاءَةَ فِي الصَّلَاةِ.

❏ ﴿تَائِبَاتٍ﴾: مِنَ التَّوْبَةِ، أَي حِينَ يَخْطِئْنَ يَكْثُرْنَ مِنَ الْإِسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ؛ أَوْ هُنَّ مَقْلَعَاتٌ عَنِ الْمَعَاصِي وَالدُّنُوبِ.

❏ وَنِسَاءُ النَّبِيِّ ﷺ غَيْرُ مَعْصُومَاتٍ مِنَ الدُّنُوبِ، رُوِيَ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ لَمْ تَذْنُبُوا لَأَتَى اللَّهُ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ وَيَتُوبُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ».

❏ ﴿عَابِدَاتٍ﴾: لِلَّهِ تَعَالَى فِي كُلِّ حِينٍ، مُتَذَلَّلَاتٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

❏ ﴿سَائِحَاتٍ﴾: سَائِمَاتٌ؛ وَقِيلَ لِلصَّائِمِ سَائِحٌ لِأَنَّهُ لَا زَادَ مَعَهُ؛ وَقِيلَ سَائِحَاتٌ أَي مُهَاجِرَاتٌ.

❏ ﴿ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾: أَخْلِيَتْ جَمِيعَ الصِّفَاتِ السَّابِقَةِ مِنَ الْعَطْفِ، إِلَّا بَيْنَ الثَّيِّبَاتِ وَالْأَبْكَارِ؛ ذَلِكَ أَنَّهُمَا صِفَتَانِ لَا تَجْتَمِعَانِ، فِيمَا أَنَّ تَكُونُ ثَيِّبًا أَوْ بَكْرًا؛ أَمَّا الصِّفَاتُ الْآخَرَى فَقَدْ تَجْتَمِعُ وَلَا تَتَنَافَى.

❏ وَتَقْدِيمُ «ثَيِّبَاتٍ» عَلَى «أَبْكَارًا» لِأَنَّ أَكْثَرَ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ لَمَّا تَزَوَّجَهُنَّ كُنَّ ثَيِّبَاتٍ؛ أَوْ كَوْنِ حَفْصَةَ تَزَوَّجَهَا رَسُولُ اللَّهِ وَهِيَ ثَيِّبٌ، وَعَائِشَةُ الَّتِي شَارَكَتْ حَفْصَةَ فِي مُخَالَفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَتْ بَكْرًا؛ وَكَانَ هَذَا مِنْ أَسَالِيبِ التَّأْدِيبِ

بالتعريض دون التصريح.

❖ سُمي بعض النحاة هذه «الواو» واو الثمانية، ونسب لابن خالويه؛ وهي في كلام الله تعالى مما ورد ثمانية لفظاً، مثل: «وثامنهم كلبهم»؛ أو عدداً مثلما في هذه الآية؛ أو في سورة براءة: «التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الامرون بالمعروف والناهون عن المنكر».



التشغيل والتفعيل

❖ لو أبدل الله تعالى نبيئه بأزواج أخر لكان هذا عقابا دنيويا لزوجاته، ولا ريب أنه سيكون فيه إيلاام له؛ ولكن رحمة من الله وفضل منه، أنهنَّ تبين من فعلتهنَّ، وكنَّ زوجات صالحات له في الدنيا، ولهنَّ عند الله أجر مضاعف يوم القيامة.

❖ هذه الآية مما وافق فيه كلام الله تعالى رأي عمر رضي الله عنه، فقد وافقه في اتخاذ مقام إبراهيم مصلى، ووافقه في اتخاذ الحجاب لنساء النبيء، ووافقه في قوله حين بلغه عتاب النبيء بعض أزواجه، فدخل على بعضهنَّ فقال: «إن انتهيتنَّ أو لبيدنَّ الله رسوله خيرا منكنَّ» فأنزل الله: «عسى ربه...» الآية.

❖ السؤال عن قوله تعالى «أزواجا خيرا منكنَّ» هل ثمة خيرٌ من نساء النبيء صلى الله عليه وسلم؟ أمَّا بالفعل، وما حصل في تاريخ السيرة

النبوية وتاريخ النبوات، فلا يعرف خيرٌ منهنَّ، إلا ما كان من مريم عليها السلام، أو زوجة فرعون التي آمنت تحت كنف أكبر جبار، وهنَّ المذكورات آخر السورة؛ فيصعب التفضيل بينهنَّ؛ أمَّا باعتبار الإمكان، فالآية صريحة في ذلك؛ ولا شيء يعجز ربَّ العزَّة والجلال.

مقام زوجات النبي ﷺ رفيع، وشأنهن عظيم، لا بالصفة فقط أي كونهن زوجات له عَلَيْهِ السَّلَام، ولكن بالاتصاف أيضا، أي بالإيمان، والإسلام، والقنوت... وفي الحديث الشريف أنَّ أبا هريرة قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله «وأنذر عشيرتكَ الأقرين» قال: يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئا؛ يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئا؛ يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا؛ يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئا؛ يا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئا».

زيد في سورة النساء على هذه الصفات المذكورة للزوجة الصالحة: «فالصالحات قانتات» «حافظات للغيب بما حفظ الله» وهذه صفة إضافية لم ترد في هذه الآية.

قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بنسائكم في الجنة؟ قلنا: بلى يا رسول الله! قال: ودود ولود إذا غضبت أو أسيء إليها أو غضب زوجها قالت: هذه يدي في يدك لا أكتحل بغمض حتى ترضى».

• من الفكر إلى الفعل

• هي صفات الزوجة الصالحة مجتمعة، فمن كان لها حظ أكثر في أي صفة من الصفات كانت أفضل وأخير.

• لا ريب أن جميع الصفات الواردة في المرأة الصالحة هي صفات الرجل الصالح: مسلم، مؤمن، قانت... إلا الثيب والبكر لا يقال في الرجل، ولكن أن يكون متزوجاً أو أعزباً.

• لا أحد من الخلق يحتاج إليه الله تعالى، وجميع الخلق في حاجة إلى رب العزة سبحانه.

• للقراءة: حاشية الطيبي، وحاشية القزويني على الكشاف للزمخشري؛ «أزواج النبي ﷺ» لأوبكة أحمد.



قال الله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ
وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ
وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾

بذور المعنى

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾: لأنَّ نبيء الله ﷺ أسوءُ وعبرة فإنَّ السورة استهلت ببيته الشريف، وببيان فضله وفضل أهله، وبأنَّ الأمر ليس هيئنا، وليست الحياة ملائكية بلا أخطاء ولا سوء تقدير أحيانا؛ لكن مع ذلك أبقى الله تعالى باب التوبة مفتوحا على مصراعيه؛ وها هو الخطاب يعمّم الحكم ويخاطب جميع المؤمنين؛ أن يجعلوا وقايةً بين أنفسهم وزوجاتهم وأولادهم وجميع أهليهم وبين النار، التي هي نار جهنم الخطيرة والعظيمة؛ والتي لا يصبر أحد عليها، ولا يقدر على تحمل أليمها؛

أعازنا الله تعالى منها.

••• ووقاية الأهل تعليمهم وتربيتهم وتزكيتهم، وحملهم على أداء الواجبات وترك المنكرات؛ واختيار مواطن الخير والصلاح لمعيشتهم، والابتعاد عن مواطن السوء؛ ومراقبتهم، والصبر عليهم، والعفو عنهم، واللطف بهم؛ والقسوة الضرورية عليهم أحياناً؛ ليزدجروا ويعودوا إلى الصواب إذا أخطؤوا؛ وزرع معاني الحبّ بينهم؛ وغير ذلك من الحقوق التي لا ينجو الإنسان إلا إذا حفظها وحافظ عليها.

••• ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾: الوقود هو كل ما يتولّد عنه حرارة؛ ووقود النار عادةً الحطب، والمواد القابلة للاشتعال مثل الفحم، والغاز، والبتروك؛ وزيد في هذا العصر المواد النووية؛ وأما نار جهنم فوقودها الحجارة، وكذلك الناس أنفسهم، الذين يتعدّبون بنارهم وقودها، وهم يُطعمونها بعظامهم ولحمهم، وجلودهم وأحشائهم... فكلما احترقت أعضاؤهم ونضجت جلودهم بدلهم الله تعالى غيرها. نسأل الله العافية.

••• ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾: معنى «عليها» في الآية أنهم موكلون بالنار، متمكّنون من أمرها، موكلون بمهامها التي أناطها الله بهم؛ فهم من أمره سبحانه يصدرن. أمّا الشدة بالكسر في «شداد» فمعناه قوة العمل المؤذي، والموصوف

بالإيلام والإيذاء الشديد الوطء. ويجمع الشديد على شِداد، وأشداء، وشدود، وشدائد.

❖ وملائكة النار هم الزبانية التسعة عشر، وغلظتهم وشدتهم مانعة من الشفقة على المعذبين، الذين هم أنفسهم لم يشفقوا على أنفسهم يوم كانوا مخيرين. قال تعالى: ﴿سَأْصَلِيهِ سَقَرَ (26) وَمَا أَذْرَاكَ مَا سَقَرُ (27) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (28) لَوَاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (29) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (30) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً...﴾ الآية.

❖ ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾: وقد أمرهم الله تعالى بما خلُقوا له، وبما كلفوا به، ولكل ملك مهامه ووظيفته، وهو لا يحدد عنها، ولا يفرط فيها أبدا.

❖ ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾: يتبعون أمر الله تعالى، وهم تحت أمره، ولا يفعلون شيئا من تلقاء أنفسهم؛ وليس فيهم كسل ولا تناقل، وإنما هم «عباد مكرمون، لا يسبقونه بالقول، وهم بأمره يعملون».



التشغيل والتفعيل

❖ في وصف ملائكة النار ترد مبالغات لا داعي منها، يقول القطب اطفيش: «ويروى: «ما بين منكبي أحدهم مسيرة مائة عام» ثم يعلق: «إن كان هذا الطول حقا من الحديث

أمنًا به، وإن كان كذبًا فما الداعي إليه؟ وقد كان يكفي أن يكون كالآدمي يقويه الله تعالى أن يضرب جبلا ويجعله دكا تنسفه الرياح، وليس ذلك الكذب يزيد خشوعًا. والقطب بهذه الملاحظة يصوغ قاعدة في التعامل مع الأخبار الواردة عن يوم القيامة، والتفريق بين غثها وسمينها، صحيحها وسقيمها.

••• الله تعالى لا يحتاج إلى الملائكة، كما لا يحتاج إلى الأسباب التي جعلها مقدمة للمسببات؛ وهو تعالى قَدَّرَ أن تجري أمور الدنيا بالأسباب وبلا أسباب، وأمور الآخرة بأسباب وبلا أسباب، لحكمة أرادها ونحن لا نعلمها، ونعترف بعجزنا في فهمها، ولقد حاول البعض أن يفسر ذلك فلم يوفق، وأعظم تفسير هو التسليم والاعتراف بمطلق علم الله تعالى وحكمته وقدرته في كل شيء: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (82) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.



•• من الفكر إلى الفعل

•• موعظة نساء المؤمنين في مستهل السورة يناسبها تنبيه المؤمنين للقيام على شؤون نساءهم كما كان عَلَيْهِ السَّلَامُ قائما حريصا؛ فهو عَلَيْهِ السَّلَامُ أسوة للمؤمنين، وهنَّ أسوة للمؤمنات.

•• من أوكد واجبات المسلم مراعاة حقوق الوالدين والأهل والأبناء؛ فمن ضيع ذلك كان لدين الله أضيع، ولا يريح ريح الجنة.

•• الإيمان بالملائكة من جملة الإيمان بالغيب، مرده إلى التسليم بما جاء به القرآن الكريم، والسنة الصحيحة؛ ولا مجال لإعمال العقل في ذلك.

•• من اتبع الأسباب التي أمر الله تعالى باتباعها كان طائعا لله، مستسلما لأمره؛ حق لله تعالى أن يبلغه ما يروم إليه، ويمنع عنه شرَّ ما قضي له.



قال الله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾



بذور المعنى

- ❖ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ﴾: إمَّا أن يكون القائل هو الملائكة، يقولون ذلك للكفار وهم يعذبونهم؛ وإمَّا أن يكون القائل هو الله تعالى، الذي أعلمنا بحال الملائكة في النار، وبحال الكفار المعذبين ومقالهم.
- ❖ والاعتذار افتعال مشتق من العذر، ومادة الافتعال دالة على تكلف الفعل؛ والعذر الحجة التي تبرئ صاحبها من تبعة عمل ما؛ وليس للاعتذار فعل مجرد، أمَّا عذر فبمعنى قَبِلَ العذر.
- ❖ يقول تعالى في سورة غافر: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ

ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ (49) قَالُوا أَوْ لَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٤٩﴾. وإنما نهوهم عن الاعتذار، لأنَّه لا عذر يوم الجزاء، ولو كان ثمة من اعتذار فهو في الدنيا يوم خيَّرهم الله تعالى، وفتح لهم باب التوبة واسعا بلا قيد، ورغَّبهم عليه.

﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: والله تعالى يجزي كل نفس ما عملت ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾؛ والله سبحانه لا يظلم الناس شيئا، ولكنَّ الناس أنفسهم يظلمون، وهو يجازيهم بما عملوا، وبما كسبت أيديهم.



التشغيل والتفعيل

والآية تحمّل المسؤولية لكلِّ مكلف على نفسه أولا، وعلى من يقع تحت إمرته ومسؤوليته ثانيا.

الاعتذار والندم والتوبة من أصول منظومة الطاعة في الإسلام، وليس مثل المسيحية التي تتعقد عندها الخطيئة، بسبب ذلك نشأ ما يعرف بصكوك الغفران، وتحولت المعصية إلى علاقة تتجاوز العبد العاصي والربَّ التائب، إلى واسطة ووسائط، تبتز وتجمع الأموال على إثر ذلك؛

وإن كان من مال وحق في الإسلام، فهو للمساكين، من مثل الكفارات، التي تكون في بعض المعاصي شرطاً في التوبة، وليس لأحد من العلماء أو الأمراء نصيب منها.



من الفكر إلى الفعل

- للبحث: مفهوم الخطيئة والخطأ، والمعصية والذنب، والتوبة والاستغفار؛ في الفكر الإسلامي، مقارنة بالفكر المسيحي واليهودي.
- «اللهم إنك عفو كريم تحبُّ العفو فاعف عنا».
- «اللهم احفظنا فوق الأرض، وتحت الأرض، ويوم العرض؛ اللهم حسن لنا خواتيمنا، وخواتيم جميع المسلمين» آمين.
- للقراءة: «حتى الملائكة تسأل»، و«الصراع من أجل الإيمان» لجيفري لانغ.



قال الله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ
أَن يُكَفِّرَ عَنْكُم سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ ءَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ
نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا
وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾

بذور المعنى

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾: النصح من صفات التائبين ووصفت به التوبة ذاتها ﴿تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾؛ وقيد التوبة كي تكون نصوحا، ويكون صاحبها ناصحا، أن يستقبح التائب فعله، وأن يندم على ذنبه، وأن يعزم على عدم العود، وأن يوطن نفسه على التنزه منه، وأن يرد المظالم فيما فيه حقوق للعباد، ويؤدي الكفارات والحقوق التي هي من الله تعالى زواجر. ويقال: غسل ناصح أي خال من الشمع، وتوبة نصوح أي خالية من شوائب الأعمال.

والمناسبة بين هذه الآية والتي قبلها، أن الكفار لم يعتذروا في الدنيا، ولم يتوبوا من ذنوبهم؛ فكان مصيرهم النار والعذاب الأليم؛ أمّا المؤمنون المخاطبون بأسلوب التحبب في هذه الآية، فهم سراع إلى التوبة، شديدو الندم عن المعاصي؛ وجاءت الآية محرّضة على التوبة، مبيّنة لوصفها وشروطها.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْۚ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمۥ سَيِّئَاتِكُمْ﴾: فتح لباب الرجاء أمام العاصي، وإطماع للعاصي على التوبة؛ وعسى في حق الله تعالى تحقيق لا ترجّ، وهو مالك الأمر كله؛ والمعنى كذلك أن التوبة من الكبائر بالتخصيص والقصد سبب لأن يغفر الله تعالى الصغائر بلا تخصيص، ففي سورة النساء: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرَ عَنْكُمۥ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلِكُم مَّدْخَلًا كَرِيمًا﴾.

﴿وَيُدْخِلِكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: ورد في كامل القرآن الكريم ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، وفي آية واحدة من سورة التوبة جاء بصيغة ﴿تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ بحذف ﴿مِن﴾؛ والفرق واضح بين الصيغتين؛ وهو أن الأولى منبعها من تحتها، والماء يتفجر منها؛ أمّا الثانية، فالنبع من خارجها، والأنهار التي تتجمع تجري تحتها.

وجريان الأنهار من تحت الجنات علامة على دوام خضرتها، ونوال عطائها، وهو مقرون لذلك في أغلب الآيات بالخلود

إمَّا لفظاً ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، أو معنى بصيغ متعددة.

❖ ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾: في أول السورة وعدُّ من الله بأن ينصر نبيه محمداً ﷺ في الدنيا، وفي هذه الآية وعدُّ بأن لا يخزيه يوم القيامة؛ ولا يخزي الذين آمنوا معه؛ والمعية زمانية، ومكانية، وحالية؛ ولا تقتصر على المصاحبة فقط؛ فكل من آمن بمحمد وعمل بما جاء به فهو ﴿مَعَهُ﴾؛ وفي سورة الفتح تفصيل لهذه المعية، وتوضيح لخصائصها، قال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ...﴾ الآية.

❖ هذه الآية دليل على أن الله تعالى غفر لجميع صحابة رسول الله ﷺ ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾، باعتبار أن مع متعلقة بمنع الخزي عن الرسول وعن الذين آمنوا معه.

❖ ﴿نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾: سعي النور امتداده وانتشاره، شبه بسعي الساعي ومشى الماشي المنتشر في الأرض.

❖ والنور الذي اكتسبوه بالإيمان وبالطاعة والعمل الصالح من الدنيا يتجمع يوم القيامة، وهو الذي يسعى بين أيديهم، وينير لهم السبيل، في أحلك الظلمات؛ وثمة نور آخر يسعى بأيمانهم؛ أمَّا المنافقون فيكونون في أمر مريب يوم القيامة، وأخبر تعالى عنهم أنهم يقولون للذين آمنوا: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ والجواب: ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا

نُورًا ﴿١٠﴾.

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾: يسألون الله تعالى أن يجعل نورهم تامًا لا ينطفئ، ذلك أنهم رأوا نور المنافقين منطفئًا، وفعلهم في الدنيا صار هباء لا ينفذ يوم القيامة.

﴿وَاعْفِرْ لَنَا﴾: فلا أحد من الناس لا يخطئ، ولا أحد يستغني عن رحمة الله تعالى ومغفرته، فالفضل والمنة منه وحده، ولو أنه حاسب الناس محاصصة لما نجا أحد من الخلق؛ قال نبينا الكريم ﷺ: «لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته». والسياق مفيد أن المغفرة من الله سبب لتمام النور، فلا يتم إلا بها.

﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: مألوف الأسلوب أن يقال: ﴿إِنَّكَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مثلًا؛ ولكن استحضار قدرة الله تعالى على كل شيء في هذا السياق، باعتبارها فاصلة لهذه الآية؛ يجعلنا أولًا نقرُّ بعجزنا عن فهم المعنى؛ وثانيًا نرجح أن تكون فاصلة لكل ما ورد من أول السورة: من تكفير السيئات عن المؤمنين، ونصرة الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ والذين آمنوا معه، وإدخالهم الجنة، وإتمام نورهم... والله تعالى أعلم بمراده.



التشغيل والتفعيل

❖ تعدية ﴿تَابَ﴾ بحرف ﴿إِلَى﴾ لأنها بمعنى الرجوع؛ ولأنَّ تاب أخو ثاب؛ وثاب إلى الله رجع عن ضلاله، وتاب إليه؛ ويقال تاب المريض إذا رجعت إليه صحته، وثاب الماء إذا اجتمع في الحوض. فمن لم يرجع إلى الله، ومن لم يتداو من مرض المعصية، ومن لم يجمع عواطفه وفكره في حوض الإيمان لم يصحَّ أن يسمَّى تائبًا، ولا ثائبًا.

❖ توسعت الآيات والأحاديث في بيان أسباب استكثار النور: من المساجد، ومن الوضوء، ومن السير في الظلمات إلى الصلاة؛ ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿تُورُّ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾... ﴿فِي نُيُوتٍ آذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾.

❖ إذا نصحت توبة العبد من ذنب فإنَّ الله تعالى وعده بالمغفرة، وهو سبحانه لا يخلف الوعد ولا الوعيد؛ ولا واجب على الله؛ ولا يجوز الجزم بقبول التوبة من عبد إلا بالنص، مثل توبة الثلاثة الذين خَلَّفُوا.

❖ عن علي رضي الله عنه أنه رأى رجلاً قد فرغ من صلاته وقال: «اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك سريعاً» فقال له: «يا هذا، إنَّ سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين؛ وتوبتك تحتاج إلى توبة» قال: «يا أمير المؤمنين، وما التوبة؟» قال: اسم يقع على ستة معانٍ: على الماضي من الذنوب الندامة،

ولتضييع الفرائض الإِعادة، ورُدُّ المظالم إلى أهلها، وإذابة النفس في الطاعة كما أذبتها في المعصية، وإذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية، وأن تزيّن نفسك في طاعة الله كما زينتها في معصية الله».

العود إلى المعصية معصية جديدة وجب التوبة منها؛ والدليل على كون التوبة نصوحا استئصال التائب من العودة، والاجتهاد في الإقلاع؛ ولكن إذا لم يتحقق له ذلك، فلا يجوز له أن يقنط أو ييأس ويستسلم؛ بل الواجب عليه ملازمة عتبة الصلاح والإيمان حتى يعفو الله عنه. وأعظم المعاصي معصية لا تؤرق صاحبها، ولا يجد لها في قلبه حسرة وندما وقلقا.



• من الفكر إلى الفعل

- مداومة الدعاء لله تعالى بما ورد في هذه الآية الكريمة: ﴿رَبَّنَا أْتُمَم لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من أفضل الذكر.
- أذِْب نفسك في طاعة الله، كما أنك قد أذبتُها في فرن المعصية من قبل؛ وأذقها مرارة الطاعات، كما أذقتها حلاوة المعاصي من قبل.
- التمييز بين الصغائر والكبائر من أعقد مسائل أصول الدين، وأصول الفقه، والفقه؛ ولكن ليس ثمة حدٌ فاصل متفق عليه؛ ذلك أنها مسألة مركبة جدا؛ فثمة مساحات مجمع عليها، ومساحات هي محلُّ خلاف بين العلماء. للبحث.
- مما استنتج من الآية أن التوسل باسمه تعالى «القدير» صالح لكل دعاء، أيًّا ما كان موضوعه.
- للقراءة: «مشارق أنوار العقول» نور الدين السالمي. «الصحابة والرضا عنهم» إبراهيم بيوض.



قال الله تعالى:

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ
وَمَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وِبَيْسَ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾

بذور المعنى

- ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾: التفات آخر من خطاب الذين آمنوا إلى مخاطبة النبي ﷺ؛ وتحول آخر من نفحات الرحمات والنور الذي يغمر رسول الله والمؤمنين معه إلى وجوب مجاهدة الكفار والمنافقين، والغلظة عليهم، والإخبار أنَّ جهنم هي مأواهم وبئس المصير.
- هكذا كلام الله تعالى تقابل بين خير وشر، وإيمان وكفر، وجنة ونار. ومجاهدة الكفار والمنافقين بالسيف، وبكل ما يجاهد به، من قوانين، وأحكام، وجدال، وفكر، وردٍّ على افتراءاتهم.

❖ ومناسبة تقديم الكفار على المنافقين لكون الأولين أظهر، ومجاهدتهم أيسر؛ أما المنافقون فهم أخفى حالا، والتريث في مجاهدتهم أوكد.

❖ ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾: الغلظة صلابة الشيء، وهي مستعارة للمعاملة بشدة، بلا عفو ولا تسامح؛ ولقد أمر الملائكة أن يكونوا غلاظا شدادا عليهم يوم القيامة؛ وأمر رسول الله ﷺ ومن معه أن يكونوا كذلك في الدنيا.

❖ وصف رسول الله ﷺ في الكتاب الحكيم بأنه: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، أمّا في شأن الكفار والمنافقين فقد أمره ربه سبحانه أن يغلظ عليهم، وهذا لصالحتهم، حتى يتوبوا، وحتى لا يتمادوا في غيهم وضلالهم؛ وحتى في غلظته عَلَيْهِ السَّلَامُ هو رحيمٌ، ولا يتجاوز الحدّ.

❖ الغليظ في طبعه لا يؤمر بالغلظة، والرحيم في طبعه لا يؤمر بالرحمة؛ إلا ما كان من أمر بالغلظة في موطن الغلظة من مثل هذه الآية، أو أمر بالرحمة تشبيهاً وتأكيذاً، كما في آية سورة آل عمران: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ...﴾.

❖ ﴿وَمَا وَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾: يوم القيامة حين يلجأ المؤمنون إلى الجنات، ويستقرون في النعيم؛ يكون ملجأ الكفار والمنافقين على السواء، جهنم ونارا شديدة، قد وصفت من قبل بأنها نار ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾.

❖ وبئس العذاب شديده وأواره، فالنار شديدة الحر والألم.

نسأل الله تعالى أن يقينا نار جهنم.



التشغيل والتفعيل

الإسلام ليس مسيحية، تدعي التسامح مع كل الناس، ثم تنتهي إلى محاربة كل الناس؛ وإنما هو توازن بين رحمة وقسوة، حكمة وقوة؛ فيما ليس فيه ظلم ولا جور، بل الإسلام عدل كله.



❖ من الفكر إلى الفعل

❖ عن النبي ﷺ: «إذا صليتَ الصبحَ فقل قبل أن تكلم أحداً من الناس " اللهم أجرني من النار سبع مرات " فإنك إن متَّ من يومك ذلك كتب الله لك جواراً من النار، وإذا صليتَ المغربَ فقل قبل أن تكلم أحداً من الناس " اللهم إني أسألك الجنة، اللهم أجرني من النار " سبع مرات، فإنك إن متَّ من ليلتك كتب الله عزَّوجلَّ لك جواراً من النار».

❖ قتال المنافقين بغرض إلقاء الرعب في قلوبهم مما أجازته الشرع، مع وجوب التثبت والتبيين.

❖ للقراءة: «الجهاد كيف نفهمه وكيف نطبقه»
لمحمد سعيد رمضان البوطي.



قال الله تعالى:

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةً نُوحٍ وَامْرَأةً لُوطٍ كَانَتَا
تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا
عَنهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾

بذور المعنى

❖ ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾: بدأت السورة بأهيات المؤمنين، وهنَّ الكريمات الطاهرات المفضلات؛ ثم توسطت بصفة المرأة الصالحة، وبمعايير الصلاح للزوجات بخاصة، وختمت بضرب مثلين أحدهما عن المرأة الكافرة تحت عصمة رجل صالح، والثاني عن امرأة صالحة تحت كنف رجل طالح، ثم ختمت بمريم ابنة عمران، وهي بلا زوج؟

❖ ضرب المثل متعدية باللام ﴿لِلَّذِينَ﴾، أي لأجل ولصالح

هؤلاء الكفار؛ أي أنه سبحانه ضرب هذا المثل عظة لهم وتذكيراً؛ لعله يفيدهم وينفعهم.

❖ ﴿امْرَأَةٌ نُوحٍ وَامْرَأَةٌ لُوطٍ﴾: لم يذكر الله تعالى اسمهما، والمقصد أن لا أحد يغني عن أحد، والعبرة لأمهات المؤمنين أنهنَّ إن أظعن نجون، وإن عصين هلكن؛ ولقد نفعهنَّ المثل؛ ثم هو مثلٌ لجميع النساء إلى يوم القيامة، عسى أن ينفع المؤمنات منهنَّ.

❖ ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا﴾: أي خانتا الأمانة ولم توفيا حقها؛ وليست هي الخيانة الزوجية التي تعرف بالفحشاء، وحاشا أنبياء الله تعالى أن تكون زوجاتهم حتى وهن على الكفر من أهل الفاحشة، يقول ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ما زنت امرأة نبي قطُّ»؛ ومن جملة الخيانة أنهما أضمرتا الشرك وأظهرتا الإيمان.

❖ ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾: لا شفاعاة للزوج على زوجته إذا ماتت على شرك أو كفر؛ ولا يغني كون زوج هاتين المرأتين من الأنبياء الكرام؛ قال عن امرأة لوط: ﴿فَأَسِرْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾، ولم يقص لنا عن هلاك امرأة نوح عَلَيْهِ السَّلَام، وإنما قصَّ سبحانه عبرة هلاك ابنه.

❖ ﴿وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾: يقال لكل كافر مات على كفره، ولكل مشرك مات على شركه، ولكل منافق مات على

نفاقه: ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾؛ ولقد قيل للمرأتين ما قيل لسائر الكفار، ولجميع الداخلين فيها: ﴿ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾؛ فلا محابة ولا اعتبار للنسبة والصفة؛ وإنهما زوجات أنبياء.



التشغيل والتفعيل

﴿كَانَتَا تَحْتَهُ﴾: التحتية مجاز بمعنى الصيانة والعصمة؛ وفلانة كانت تحت فلان أي هي كانت زوجًا له.

حسب تحقيق بعض المفسرين، كانت خيانة زوج نوح له بعد الطوفان لا قبله؛ إذ تروي المصادر الكتابية أنها ركبت معه السفينة؛ فيكون نوح **عَلَيْهِ السَّلَامُ** قد فتن مرتين: قبل الطوفان بابنه، وبعد الطوفان بزوجه.

الفتنة التي فتن بها سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام عظيمة، إذ خانته زوجته، وخانه ابنه، ولم يؤمن به قومه؛ ولذا يكون فضله عظيمًا؛ ولذا نقرأ في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ **آدَمَ وَنُوحًا**، وَأَمَّا عَنْ إِبْرَاهِيمَ وَعِمْرَانَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فَقَالَ: ﴿وَعَالَ إِبْرَاهِيمَ وَعَالَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

أمَّا رسول الله ﷺ فلو لم تتب زوجاته لكان في مقام نوح **عَلَيْهِ السَّلَامُ**؛ ولكن بحمد الله كانت زوجاته في مستوى المسؤولية والرسالة، فكان **عَلَيْهِ السَّلَامُ** في مثل حال إبراهيم

عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولذا عَلَّمْنَا أَنْ نَدْعُو بِالْذَعَاءِ الْمَأْثُورِ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ؛ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ؛ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ».



٥٠ من الفكر إلى الفعل

٥٠ لا أحد يغني عن أحد شيئاً عند الله تعالى، ولا تزر وازرة وزر أخرى؛ هذا حال النبيين وحال من دونه من باب أولى.

٥١ لو كان شيءٌ يصرف غضب الله تعالى لنسب أو نسبة، لكانت امرأة نوح وامرأة لوط من أولى الناس حقاً في ذلك؛ ولكن الزوجية لا تشفع للكافر، بل قد تحمله أكثر مما يتحمل غيره من واجبات.

٥٢ صلاح الزوجة من أعظم المنن في الدنيا، ومن أعظم أسباب السعادة في الآخرة.

٥٣ ناسبت هذه الآية الأمر بالوقاية من النار: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾.

٥٤ للقراءة: «قصص الأنبياء» عبد الوهاب النجار.



قال الله تعالى:

وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَةٌ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ
ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي
مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ١١

بذور المعنى

- ❖ ﴿وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَةٌ فِرْعَوْنَ﴾: على نقيض المثل الأول، كان فرعون مشركا كافرا جبارا؛ وكانت امرأته صالحة مؤمنة محبته. وكفر الزوج لا يضر الزوجة في مصيرها عند الله سبحانه، كما أن كفر الزوجة لا يضر الزوج.
- ❖ ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾: والعندية هي محلُّ رضا الله تعالى، وهي الرتبة الشريفة، هنالك في الفردوس الأعلى؛ ولا بيت في الجنة بلا رضا من الله تعالى ورضوان.
- ❖ ولقد آثرت زوجة فرعون بيتا يبنيه لها الله سبحانه على

بيت بل قصرٍ تسكنه، وهي ملكة مصر، وصاحبة المقام والحظوة؛ فبإيمانها استقلت جميع متع الدنيا، وهذا من الإيمان بالغيب الذي ميزها وفضلها على كثير من نساء العالمين.

❏ ﴿وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾: من فرعون الطاغية، حتى لا يفتنني في ديني كما فتن السحرة، وحتى لا يقهرني ويعذبني وهو المعلن العدا لـ لكل من آمن بك يا رب.

❏ ومن فعل فرعون الخبيث، الموصوف بالبلاء العظيم، ما ذكر الله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّجُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

❏ ﴿وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾: من حاشية فرعون ومن معاونيه، الذين ناصروه على الباطل، وحملوا معه لواء الجحود والكفران، وأنزلوا على المؤمنين أشدَّ العذاب.



التشغيل والتفعيل

❏ في دعاء امرأة فرعون بيان لما ورد في سورة يونس: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ (84) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، فهنا قال المؤمنون جميعاً ذلك، وفي سورة التحريم قالت ذلك امرأة فرعون، بنفس الصيغة والمعنى.

❖ اجتمع لدى امرأة فرعون عليها السلام صلاح الظاهر وصلاح الباطن «والإيمان إذا كمل تواطأ الظاهر والباطن، وتوافق القلب واللسان، فلا يقول الإنسان إلا ما يفعل، ولا يفعل إلا ما يقول؛ فيكون ما يرجوه أو يتمناه أو يسأله بلسانه، هو الذي يريده كذلك بعمله».

❖ ذكرت بعض الروايات أن امرأة فرعون ماتت مقتولة؛ قتلها زوجها فرعون لما علم أنها آمنت بالله وحده، غير أنه لا شيء مما روي على التحقيق.

❖ هل امرأة فرعون المذكورة في الآية هي التي تبنت موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ صبياً، حين التقطته من اليم؟ ذكر بعض المفسرين أنها غيرها؛ وأنها جاءت بعد موسى بأجيال؛ وكانت على دينه؛ والمسألة للبحث.



• من الفكر إلى الفعل

• المرأة الصالحة تزعم زوجها إلى الصلاح، وتحمله عليه؛ وكذا الزوج الصالح، هو بشير خير لأهله وزوجه.

• امرأة فرعون **عَلَيْهَا السَّلَامُ** أسوة للمؤمنات في متانة الإيمان، ومريم عليها السلام أسوة للمؤمنات في القنوت والإحصان والتصديق بكلمات الله.

• ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ الإكثار من هذا الدعاء من صفات عباد الرحمن.



قال الله تعالى:

وَمَرِيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكِتَابِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿١٢﴾

بذور المعنى

❏ ﴿وَمَرِيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾: أي ضرب الله تعالى مثلاً آخر بمريم ابنة عمران، معطوف على امرأة فرعون؛ وهي قد أحصنت فرجها ومنعته من الزنى، ومن كل ما حرم الله تعالى. وهي العفة والنقاوة والطهارة.

❏ ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾: النافخ هو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهنا أسند النفخ إليه سبحانه تعظيماً لشأنها، وإمعاناً في بيان عفتها وطهرها. ولا داعي للبحث عن طريقة النفخ، ولا عن مكان النفخ؛ إذ المهم أن الله تعالى بواسطة جبريل مكنها من أن تحمل بلا زوج، على غير عادة النساء لتكون آية

للناس إلى يوم القيامة: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾.

﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكِتَابِهِ﴾: كلمات الله تعالى هي ما نزل من صحف قبل بعثة ابنها عيسى عَلَيْهِ السَّلَام؛ ثم آمنت بالإنجيل المنزل على عيسى، وقبله بالتوراة المنزل على موسى عَلَيْهِ السَّلَام؛ وذلك تبعاً لعيسى وقد قال: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيِّ مِنَ التَّوْرَةِ﴾. وقد تكون كلمات الله هي ما نزل من وحي، وتكلم به عيسى عَلَيْهِ السَّلَام وهو في المهد صبياً، وهو ليس مما جاء به الإنجيل.

﴿وَكَاثُ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾: من صفات المرأة الصالحة أن تكون قانتة لله تعالى؛ ومريم ابنة عمران كانت من القانتين المبالغين في العبادة، والبالغين مقاما عليا في الإخلاص. ويمكن أن يكون معنى ﴿وَكَاثُ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ أي هي من نسل طاهر قانت عفيف.



التشغيل والتفعيل

لم يذكر الله تعالى امرأة باسمها في القرآن الكريم إلا مريم عليها السلام؛ وذلك لإبطال عقائد النصارى فيها، ولتبرئة ساحتها من الفاحشة؛ ومنه نأخذ وجوب تعيين مَنْ برئت ذمته بالاسم، حتى لا يقع لبس عند الناس؛ أمّا من اتهمت بفساد، فيكفي فيها التعريض طمعا في توبتها؛ وكذلك الشأن في حق الرجل، ولكن عرض المرأة أكثر تعقيدا وهشاشة.

❖ قال رسول الله ﷺ: «كامل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء غير مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون؛ وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام». وزيد في حديث ضعف سنده رجال الحديث: «خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد»

❖ قال القطب: «قلت: وفي الآية تسلية لمن لا زوج لها من النساء بعدها، إذا تمسكن بعبادة الله تعالى، وتورَّعن».



٠٠ من الفكر إلى الفعل

٠٠ الإسلام منفتح على الديانات السابقة، وهو نظام مفتوح؛ عكس اليهود الذين تنكروا للإسلام، والنصارى كذلك.

٠٠ يكفي التعريض في حق من عصى ليتوب؛ ويجب التصريح في حق من برئت ذمته، حتى لا يخطئ الناس في حقه.

٠٠ هن ثلاث صفات جليلة تؤخذ من مريم عليها السلام: إحصان الفرج والعفة، التصديق بكلمات الله وكتبه، والقنوت لله سبحانه.

٠٠ للقراءة: «مريم ابنت عمران في المسيحية والإسلام، دراسة مقارنة» عوني فتحي سليم. و«الظاهرة القرآنية» لمالك بن نبي.



فهرس الآيات

- 23 تفسير سورة الطلاق
- 25 ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمْ...﴾
- 32 ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ...﴾
- 37 ﴿وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ...﴾
- 41 ﴿وَاللَّائِي يَيْئَسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ...﴾
- 45 ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ...﴾
- 49 ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِّنْ...﴾
- 54 ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّنْ سَعَتِهِ...﴾
- 58 ﴿وَكَايِنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ...﴾
- 64 ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا...﴾
- 66 ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ...﴾
- 70 ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ...﴾



- 75 تفسير سورة التحريم
- 77 ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ...﴾
- 83 ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ...﴾
- 87 ﴿وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ...﴾
- 91 ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ...﴾
- 96 ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا...﴾
- 101 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ...﴾
- 106 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ...﴾
- 110 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ...﴾
- 117 ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ...﴾
- 121 ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحٍ...﴾
- 126 ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأةَ فِرْعَوْنَ...﴾
- 130 ﴿وَمَرِيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ...﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

